

إيمانويلا ستيفانيدز
Emmanuelle Stefanidis

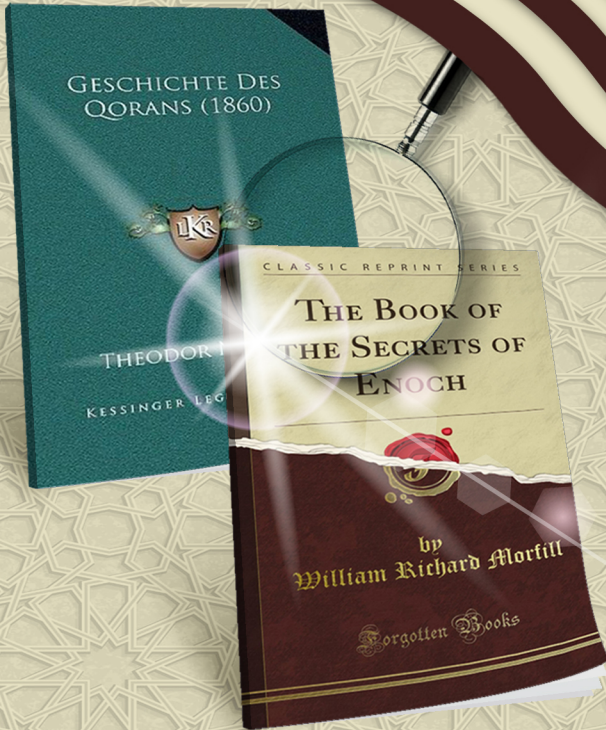
القرآن خطياً

دراسة في الترتيب الزمني لسور القرآن
في كتاب «تاريخ القرآن»

ترجمة: حسام صبري

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies



مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies



المعلومات والآراء المقدمة هي للكتاب، ولا تعبر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

نبذة تعريفية بإيمانويلا ستيفانيدز:

باحثة فرنسية، حاصلة على دكتوراه من جامعة السوربون، عن دراسة حول «القراءات الدياكرونية -التعاقبية- للقرآن»، لها اهتمام كبير بدراسة الترتيب الزمني للقرآن وإشكالاته وتطوراته في الدرس الغربي، وهذه المقالة التي نترجمها لها هنا من أشهر كتاباتها في هذا السياق.



مقدمة^(١):

ربما لم يحظَ كتابٌ غربيٌّ حول القرآن بالشهرة والاهتمام الذي حظي بهما كتاب نولدكه «تاريخ القرآن»، سواء على مستوى الدراسات الغربية أو على مستوى الدراسات غير الغربية، وهذا على الرغم من تأخر ترجمته لبعض اللغات ومنها العربية، والذي يرجع فيما يرجع للغة الكتاب الألمانية وصعوبة تتبع ونقل الطريقة الفيلولوجية المعقدة التي يشتغل عبرها، وتنبع أهمية هذا الكتاب في جزءٍ كبيرٍ منها لكونه يمثل تكثيفاً للاشتغال الفيلولوجي الاستشراقي على النصّ القرآني، سواء باستفادة نولدكه من سابقه في هذا المجال، أو لكون الكتاب ذاته اشترك تلامذة نولدكه معه في تطويره ليخرج بشكله النهائي، مما يجعله ربّما نتاج حقلٍ ما أكثر من كونه نتاج لشخصٍ ما.

هذه المقالة لايمانويلا ستيفانيدز الباحثة الفرنسية ليست عرضاً لكتاب نولدكه، ولكن دراسة في أحد أهمّ موضوعاته وأحد أهمّ المساحات التي أعطت له مرجعية في الكتابات الغربية، وهي الدراسة الكرونولوجية للقرآن واقترح

(١) قام بكتابة المقدمة، وكذا التعريف بالأعلام وكتابة الحواشي والتعليقات الواردة في نصّ الترجمة، مسؤولو قسم الترجمات في موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، وقد ميّزنا حواشينا عن حواشي ستيفانيدز بأن نصصنا بعدها بـ(قسم الترجمات)، وقد كانت حواشي ستيفانيدز في ختام الدراسة، لكننا آثرنا تضمينها في الدراسة تيسيراً على القارئ حتى يتمكن من تتبّع مراد المؤلف.

ترتيب زمني معقول له من وجهة نظره، وتساؤل حول الأسباب التي جعلت له مرجعية كبيرة في الدرس الغربي في هذه المساحة بالذات.

في هذا السياق تستحضر ستيفانيدز المحاولات الغربية الطامحة لإيجاد مثل هذا الترتيب، والتي بدأت بصورة مركزية مع جوستاف فايل ثم وليم موير وهيرشفيلد، والمرتبطة بالنظرة الغربية للقرآن أولاً ككتاب غير مرتّب، يحتاج لترتيبٍ معقولٍ يتماشى مع العقل الغربي من أجل دراسته، وثانياً باعتباره تلخيصاً لأفكار محمد؛ مما يجعل الترتيب الكرونولوجي شديد الأهمية في اكتشاف تطوّر هذه الأفكار وكذا في التأريخ لتشكّل المجتمع الإسلامي.

ثم تنتقل ستيفانيدز من دراسة سياق الكتاب إلى دراسة داخلية لبراهين وحجج نولدكه في بنائه تصوّره الكورونولوجي للقرآن، والذي يقسمه فيه إلى: «فترة مكّية أولى، فترة مكّية ثانية، فترة مكّية ثالثة، فترة مدنيّة» استناداً لفكرتي التراجع الأسلوبى، وتطوّر الأسلوب، كما تحاول المقارنة بين منطلقات نولدكه في التقسيم ومنطلقات التقسيمات السابقة عليه خصوصاً فايل، واللاحقين عليه مثل بيل، كذلك تحاول تتبّع طريقة تناول شفالي -تلميذ نولدكه- لتحقيق نولدكه، وما حاول إدخاله عليه من تعديلات أدت -فيما تقول- لتحوّل النسخة الأخيرة من كتاب «تاريخ القرآن» لنسخة تحمل الحلم الاستشراقي بإيجاد مثل هذا التقسيم، وتحمل في نفس الوقت تقويضه عبر التشكيك الأكثر جذرية في القوائم التقليدية لترتيب القرآن الزمني ومرويات أسباب النزول.

كما تشير ستيفانيدز في مقالتها إلى هذا التراجع في الاهتمام والثقة في إيجاد مثل هذا الترتيب الزمني للقرآن عند كثيرٍ من المستشرقين، خصوصاً في النصف الثاني من القرن العشرين، وهذا مع بروز القراءة التزامنية للقرآن من جهة، ومن جهة أخرى مع تصاعد التشكيك في المرويات التراثية الإسلامية، والتي كانت معتمداً في ترتيب القرآن عند المستشرقين حتى ولو لم تخلُ من تعامل نقدي، كما تلفتُ النظرَ بذكاءٍ إلى بعض المسائل المهمة المطروحة على أي محاولة لإيجاد ترتيب كرونولوجي للقرآن، تتعلق بمدى إمكان هذا في ضوء كون القرآن يعيد صياغة وترتيب والاستشهاد بالكثير من الآيات والمواضع مرات ومرات في طرحٍ متجددٍ للأسئلة والإجابات والحوارات فيما تعتبره نويفرت «توسّع نصّي حول نواة أصلية»، وما يمثله ذلك من عائق أمام التأكد من أسبقية سورةٍ على سورةٍ بشكلٍ زمني دقيق، وكذلك جدواه في ضوء إغفاله لتتبع هذه التطوّرات ذاتها كجزء من الأسلوب القرآني العالم ومنهجه في تقديم أفكاره.

ونظنّ أن لهذه المقالة فائدة كبيرة حين تنشر في ملف «تاريخ القرآن»، حيث إنها لا تقدّم مجرد إطلالة على كتاب من أهم الكتب الغربية حول تاريخ القرآن فحسب، لكن تعتمد إلى تكثيف النظر في مساحة من أهم مساحات هذا التاريخ في الدرس الغربي.



الدراسة

مقدمة^(١):

ما الكيفية المثلى لقراءة القرآن ودراسته؟ وما المبدأ التنظيمي وأسلوب القراءة المفترض اتباعه؟ وما هي الوسائل (المشروعة) التي ينبغي من خلالها تحديد البعد اللامحدود للقرآن؟

لا شك أنّ الأسئلة المتعلقة بمرجعية النصوص، أو درجة استقلالها النصي أو قضية الموقع النهائي للمعنى تحظى بأهمية محورية في جميع الجهود الأدبية والتأويلية، لكنها ذات أهمية بالغة في دراسة القرآن على وجه الخصوص. يمكن القول أن القرآن نصّ مفتوح، فالنصّ بما يتّسم به من بناء فضفاض ومحتوى متعدّد الوجوه يغري القارئ للإسهام في إنتاج المعنى^(٢). فإنّ تبنيه لأسلوب

(١) ترجم هذه المادة: حسام صبري، مدرس مساعد بكلية اللغات والترجمة - قسم الدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية، بجامعة الأزهر، شارك في ترجمة عددٍ من الكتب الدينية، وقام بترجمة عددٍ من البحوث، كما أنّ له العديد من الترجمات المنشورة على بعض المواقع الإلكترونية كموقع تفسير وغيره.

(٢) للوقوف على المراد بالنصوص المفتوحة، انظر:

Umberto Eco, *The Open Work*, tr. A. Cancogni (Cambridge: Harvard University Press, 1989); and Umberto Eco, *The Role of the Reader: Explorations in the Semiotics of Texts* (Bloomington: Indiana University Press, 1984).

وللاطلاع على المقصود بالقرآن كنصّ مفتوح، انظر:

Khaled Abou El Fadl, *Speaking in God's Name: Islamic Law, Authority and Women* (Oxford: Oneworld Publications, 2001)، وخاصة الفصل الرابع.

التلميح والإشارة علاوة على غياب الإطار السردى التقييدي يتيح للقارئ اقتراح مجموعة غير محدودة من المعاني وسلوك دروب شتى في القراءة^(١). ويتعلّق البحث الذي بين أيدينا بواحدة من طرق القراءة واستغلال الثراء النصّي للقرآن، وهي طريقة كان لها كبير الأثر في حقل الدراسات القرآنية على مدار ما يربو على قرنٍ من الزمان. فقد بدأت جهود المستشرقين في إمطة اللثام عن إعادة الترتيب الزمني لسور القرآن أو ما يُعرف باسم «كرونولوجي القرآن» في منتصف القرن التاسع عشر مع ظهور كتاب مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن

(١) كأن الكاتبة هنا تتحرك في التعامل مع النصوص باعتبارها نوعين؛ الأول: حيث يوجد إطار سردي تقييدي لا يتيح للقارئ أي اقتراح لمعانٍ متعددة فتعتبره «نصًّا مغلقًا»، والثاني: حيث لا يوجد هذا الإطار السردى التقييدي، مما يتيح للقارئ اقتراح مجموعة غير محدودة للمعنى فتعتبره «نصًّا مفتوحًا»، وهي تضع القرآن في النوع الثاني، ومبدئيًّا يصعب الحديث عن كون النصوص لا تعرف إلا هذين النوعين، أو أن التباين بين النصوص من حيث سعة قبولها لتعدّد المعاني ومن جهة الانفتاح والانغلاق هو بهذه الحديّة، فكثير من النصوص -وربما هو الأغلب- ينطوي على عدد من المرتكزات التي تكون كفيّلة بترجيح عدد من المعاني على حساب أخرى، لا تستطيع ربما أن تشير إلى معنى واحد صحيح يستبعد كلّ البقية، لكنها تستطيع عبر الاستناد لمعايير الاقتصاد والبساطة استبعاد التأويل الرديء بتعبيرات إيكو، فهي مرتكزات تعمل على ضبط عملية التأويل بحيث لا تتحول لتفسير رديء، ولعلّه من الواضح أنّ القرآن لا ينتمي للنوع الذي تشير له الكاتبة، وإنما هو أقرب لما يشير إليه إيكو، حيث إن الوصول للمعنى أو على الأقلّ لجملته من المعاني المقصودة هو أحد مقصودات النصّ الرئيسيّة ككتاب هداية وتشريع، مطلوب من المؤمنين تدبره الدائم وصوغ عالَمِهِم وفقًا له لا صوغه وفق عالَمِهِم. إمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكيّة، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط: ٢، ص ٦٢. (قسم الترجمات).

لغوستاف فايل^(١) سنة ١٨٤٤^(٢). ثم عُرفت أربعة مناهج للترتيب الزمني عند المستشرقين^(٣)، وسرعان ما اكتسبت طريقة تيودور نولدكه^(٤) التي جاء بها في

(١) جوستاف فايل (١٨٠٨-١٨٨٩)، مستشرق ألماني، ولد لأسرة يهودية، وكان جدّه الحاخام الأكبر للمجمع الإسرائيلي، درس في صغره اللغة الفرنسية والعبرية وتعلّم في المدرسة التلمودية، دخل جامعة هيدلبرج لدراسة اللاهوت، لكن لاحقاً تركها لدراسة الفيلولوجي والدراسات التاريخية، ثم انتقل إلى باريس لإكمال دراساته الشرقية، كما سافر إلى الجزائر ومصر وتركيا، وواصل دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية، عيّن كأستاذ مساعد للّغات الشرقية في جامعة هيدلبرج عام ١٨٤٥، ثم كأستاذ كرسي اللغات الشرقية عام ١٨٦١، وقد ترجم عدداً من الكتب في التراث الإسلامي، مثل؛ «أطواق الذهب للزمخشري، شتوتجرت، ١٨٣٦»، و«ألف ليلة وليلة، شتوتجرت، ١٨٣٧-١٨٤١»، و«سيرة ابن هشام، ١٨٦٤»، وله عددٌ من الكتب؛ أهمها: «النبي محمد، حياته ومذهبه، اشتوتجرت، ١٨٤٣»، و«مقدمة تاريخية نقدية إلى القرآن، ١٨٤٤»، و«موجز تاريخ شعوب الإسلام، شتوتجرت، من عصر النبي حتى السلطان سليم الأول، ١٨٦٦»، (قسم الترجمات).

(٢) انظر:

Gustav Weil, Historisch-kritische Einleitung in den Koran (Bielefeld: Velhagen & Klasing, 1844).

(٣) انظر:

William Muir, The Life of Mahomet: With Introductory Chapters on the Original Sources for the Biography of Mahomet, and on the Pre-Islamite History of Arabia (4 vols. London: Society For Promoting Christian Knowledge, 1858-61); Theodor Nöldeke, Geschichte des Qorâns (Göttingen: Dieterich, 1860); Hubert Grimme, Mohammed (2 vols. Münster: Druck und Verlag der Aschendorffschen Buchhandlung, 1892-5), vol. 1 = Das Leben, nach den Quellen, vol. 2 = Einleitung in den Koran: System der koranischen Theologie; Hartwig Hirschfeld, New Researches into the Composition and Exegesis of the Qoran, Asiatic Monographs, 3 (London: Royal Asiatic Society, 1902).

(٤) تيودور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠)، شيخ المستشرقين الألمان كما يصفه عبد الرحمن بدوي، درس عدداً من اللغات السامية: العربية، والعبرية، والسيربانية، وآرامية الكتاب المقدس، ثم درس -وهو طالب في الجامعة- الفارسية والتركية، وفي العشرين من عمره حصل على الدكتوراه عن دراسته حول «تاريخ القرآن»،

=

كتابه «تاريخ القرآن» سنة ١٨٦٠^(١) شهرة خاصة وقبولاً واسعاً من بين هذه المناهج. ثم رأى البعض أنها بحاجة إلى إعادة تنقيح كامل، فانبرى لهذه المهمة أحد تلامذة نولدكه، وهو فريدريش شفالي سنة ١٩٠٩، وأخرج لنا نسخة في ثلاثة أجزاء حازت على قصب السبق في هذا المجال.

وفي النصف الأول من القرن العشرين، كانت القراءة التاريخية للقرآن، استناداً إلى منهج نولدكه في الترتيب الزمني في كتابه تاريخ القرآن، قد بدأت في الهيمنة على البحوث الغربية في مجال الدراسات القرآنية، وبخاصة بين

=

وهي الدراسة التي قضى عمره في تطويرها، وقد صدر الجزء الأول من «تاريخ القرآن» في ١٩٠٩، وعمل عليه مع نولدكه تلميذه شفالي، ثم صدر الجزء الثاني عن تحرير تلميذه فيشر عام ١٩٢٠، وصدر الجزء الثالث عام ١٩٣٧ عبر تحرير تلميذه برجستشر ثم برتزل. كذلك درس نولدكه «المشنا» وتفسير الكتاب المقدس أثناء عمله معيداً في جامعة جيتنجن. له إلى جانب كتابه الشهير «تاريخ القرآن» كتب حول اللغات السامية، منها: «في نحو العربية الفصحى»، و«أبحاث عن علم اللغات السامية»، عمل أستاذاً في جامعة كيل ثم جامعة اشتراسبورج. كتابه «تاريخ القرآن» مترجم للعربية، حيث ترجمه: جورج تامر، وصدر عن منشورات الجمل، بيروت، ٢٠٠٨، (قسم الترجمات).

(١) في سنة ١٩٠٩ غير شفالي في العنوان الذي اختاره نولدكه، وفي مضمون الكتاب ليسير في ذلك على نمط الكتابة الصوتية المعاصرة، واختار هذا العنوان (Geschichte des Qorāns). وما يرد من اقتباسات من النسخة الأولى نشير إليه بطبعة ١٨٦٠، أما نسخة شفالي فهي طبعة ١٩٠٩، (ويراد بذلك الجزء الأول من الطبعة الثانية المنقحة). والاقتباسات مأخوذة من النسخة الأولى لسنة ١٨٦٠ ما لم يُنصّ على خلاف ذلك، ونورد رقم الصفحات المقابلة في طبعة ١٩٠٩، وإن كان هناك في بعض الحالات إعادة صياغة بسيطة للجمل الأساسية.

المستعربين الفرنسيين من أمثال ريجيس بلاشير^(١) وموريس غودفروا-ديمومبين^(٢). واتسمت القراءة بنوع من الاتساق والترابط، علاوة على العلاقة

(١) ريجيس بلاشير (١٩٠٠ - ١٩٧٣)، هو واحد من أبرز وأشهر وجوه الاستشراق الفرنسي، ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ولد في مونروج ضمن ضواحي باريس. تعلّم العربية في الدار البيضاء بالمغرب، وتخرّج في كلية الآداب في الجزائر عام ١٩٢٢م، وعيّن أستاذاً في معهد الدراسات المغربية العليا في الرباط، وانتقل إلى باريس محاضراً في السوربون عام ١٩٣٨م، ثم عُيّن مديراً للمدرسة الدراسات العليا العلمية عام ١٩٤٢م، وأشرف على مجلة المعرفة الباريسية بالعربية والفرنسية. ألّف بلاشير العديد من الكتب والتي تُرجم بعضها إلى العربية، واعتمد بعضها للتدريس في بعض المعاهد الثانوية الفرنسية. من مؤلفاته:

- ترجمة معاني القرآن الكريم، في ثلاثة أجزاء، أولها مقدمة القرآن الكريم. ثم نشر الترجمة وحدها في عام ١٩٥٧م، والتي أعيد طباعتها عام ١٩٦٦م.
- تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د. إبراهيم الكيلاني.
- قواعد العربية الفصحى.
- أبو الطيب المتنبي، عربيّ د. أحمد بدوي. (قسم الترجمات).

(٢) موريس ديمومبين (١٨٦٢ - ١٩٥٧)، مستشرق فرنسي، درس القانون ثم الآداب الشرقية، وفي الحادية والستين من عمره حصل على دكتوراه في الآداب وعُيّن في جامعة باريس، وفي ١٩٢٧ عُيّن مديراً للدراسات الإسلامية في مدرسة الدراسات العليا الملحقة بالسوربون، عاش في بعض الدول العربية مثل الجزائر والمغرب واهتم بدراسة لهجاتها وعاداتها، وكتب «مراسم الزواج عند الجزائريين»، اهتماماته الأساسية تدور حول القانون الإسلامي والنظام القضائي في الإسلام، وله في هذا عددٌ من الدراسات، منها: «تعليقات على النظام القضائي في البلاد الإسلامية»، و«في نشأة القضاء في الإسلام»، كمل له بعض الترجمات المهمّة في التاريخ، منها ترجمته لتاريخ بني الأحمر آخر ملوك المسلمين في إسبانيا، وله كتاب عن محمد، صدر عام ١٩٥٧ ضمن مجموعة «تطور الإنسانية»، (قسم الترجمات).

(٣) انظر:

=

الخطية الوطيدة التي تضيفها على النصّ القرآني خاصّة في نظر الغربيين، مما جعلها محلّ تقدير كبير، غير أنّ الفرضيات المنهجية والتاريخية لهذه القراءة لم تحظّ بالقدر المناسب -إن وُجد- من التمحيص والتدقيق^(١).

بيد أنه في النصف الثاني من القرن العشرين مع ظهور الاتجاهات الأدبية التي تميل إلى فكرة التزامنية والتعددية النصية أولاً، ثم بروز النزعة الشكّية التاريخية في الدراسات القرآنية؛ ثار جدلٌ كبيرٌ حول قضية الترتيب الزمني للقرآن،

Régis Blachère, Introduction au Coran, 2nd rev. edn (Paris: Maisonneuve et Larose, 1959); Régis Blachère, Le Coran, series Que sais-je (Paris: Presses Universitaires de France, 1966);

وبالطبع فإن ترجمته للقرآن جاءت في إطار ترتيب زمني مشابه إلى حدّ ما لما كتبه نولدكه في:

Le Coran: Traduction selon un essai de reclassement des sourates (2 vols. Paris: Maisonneuve et Larose, 1949-50); M. Gaudefroy-Demombynes, 'Noms d'Allah: Sur quelques noms d'Allah dans le Coran', Annuaire de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes (1929), pp. 1-21,

وخاصة صفحة ٢١، والتي يقول فيها:

'nulle étude coranique n'est possible, m^eme sur un infime détail ... si l'on ne s'inquiète point sans cesse de la chronologie coranique'.

فيما يخص كتاب ريتشارد بيل في محاولة تحديد تسلسل زمني للقرآن، تحت عنوان:

The Qur'an: Translated, with a Critical Re-arrangement of the Surahs (2 vols. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1937-9),

فلن تتم دراسته في هذا البحث رغم أهميته وما فيه من أفكار مبتكرة.

(١) للمزيد حول أهمية العلاقة الخطية في الأدب الغربي مقارنة بالممارسات الأدبية الأخرى مثل التسابعية

الشائعة في الأدب الياباني، انظر:

I.S. Brodey, 'Natsume S^oseki and Laurence Sterne: Cross-Cultural Discourse on Literary Linearity', Comparative Literature 50:3 (1998), pp. 193-219, esp. pp. 196-7.

وسرعان ما انبرى دعاة الحدّ من الاعتماد على المصادر التراثية الإسلامية إلى التحذير من فرط اعتماد مشاريع الترتيب الزمني على المادة التراثية، وإلى التسلسل والدوران فيما تسوقه من حجج وبراهين، علاوة على عجزها عن تفسير الحالة الراهنة للنصّ القرآني وفهمها كما ينبغي^(١).

وبدلاً من التصدي للسؤال المباشر، وربما المستعصي، حول مدى صحة كتاب «تاريخ القرآن» من الناحية التاريخية، يسعى البحث الذي بين أيدينا إلى تسليط الضوء على المنهج الذي سار عليه الكتاب وبيان النواحي التي بوأت هذه الدراسة التاريخية منزلة الصدارة بين مناهج الترتيب الزمني المعاصرة لها؟ وكيف أثرت النسخة المنقّحة التي أخرجها شفالي على النصّ الأصلي ومنزلته؟ ولأي مدى يقدم كتاب «تاريخ القرآن» ترتيباً زمنياً فعلياً في مقابل التحقيب

(١) أندرو ريبين تحديداً هو من صاغ هذه المآخذ الثلاثة بوضوح، انظر:

'Introduction' in Andrew Rippin (ed.), The Qur'an: Style and Content (Aldershot: Ashgate, 2001), p. xxii.

وانظر أيضاً في التأكيد على أهمية الحالة الأدبية الراهنة للقرآن:

'Reading the Qur'ân with Richard Bell', Journal of the American Oriental Society 112 (1992), pp. 639-47, pp. 646-7.

وصدر مؤخراً لنيكولاى سيناى دراسة مفصّلة لتقييم منهج نولدكه والدفاع عنه بعنوان:

"The Qur'an as Process" ضمن A. Neuwirth, N. Sinai and M. Marx (eds), The Qur'an in Context: Historical and Literary Investigations in the Qur'anic Milieu (Leiden: Brill, 2009 forthcoming).

انظر كذلك في نفس المجلد تحليل نورا شميد للمعايير التاريخية لطول الآيات لدى نولدكه تحت عنوان:

'Quantitative Text Analysis and Its Application to the Qur'an: Some Preliminary Considerations'.

التاريخي المجرد والفضفاض؟ وكيف يرى موقعه بين المعطيات التراثية والقوائم التاريخية؟ وماذا عن منهجه في الاستدلال؟ وماذا عن اتساقه الداخلي، والأثر النصي والتعديلات التي يحدثها في النص القرآني؟ وبوجه عام، ما هي الصعوبات المتأصلة التي تواجهها أي محاولة للتصنيف الزمني والترتيب التاريخي للقرآن؟



المبحث الأول: ظهور المحاولات الغربية لتحديد الترتيب الزمني للقرآن:

يبدو أنّ البحث في مسألة الترتيب الأصلي للوحي القرآني قد ارتبط في بادئ الأمر بشكلٍ وثيقٍ مع فضول متأصل حول حياة نبي الإسلام، وقد اعتُبر القرآن على حدّ وصف موير^(١) «مستودعاً لكلمات محمد التي سُجلت في حياته»^(٢)، ويمكن من خلالها معرفة أفعاله وما اعتمَل في نفسه من صراعات. ومن هذا المنظور أوضحت إعادة الترتيب الزمني للقرآن شرطاً لاستخدامه التاريخي. وقد تصدى غوستاف فايل (١٨٠٨-١٨٨٩) لمسألة التسلسل الزمني للقرآن في كتابه «النبي محمد»، حيث ساق بالتفصيل ترتيباً زمنياً أخذه عن «تاريخ الخميس» للديار بكري^(٣) ليسترشد به بشكلٍ عامٍّ مع لفت أنظار القارئ إلى أنه

(١) وليم موير (١٨١٩م - ١٩٠٥م) مستشرق أسكتلندي، ولد في جلاسجو، تعلّم اللغة العربية واهتم بالتاريخ الإسلامي أثناء وجوده بالهند كمشتغل في الإدارة المدنيّة لشركة الهند الشرقية، وهناك شارك في بعض الحملات التبشيرية التي كانت تقوم بها البعثة التبشيرية في مدينة أجرا، تركّزت اهتماماته في السيرة النبوية وتاريخ الخلافة الإسلامية، وهو صاحب الكتاب الشهير «حياة محمد وتاريخ الإسلام حتى عصر الهجرة، ١٨٥٦ - ١٨٦١»، وكذا كتاب «شهادة القرآن على الكتب اليهودية والمسيحية، ١٨٥٦»، وقد تولى رئاسة جامعة أدنبرة بأسكتلندا منذ عام ١٨٨٥ وإلى عام ١٩٠٣، (قسم الترجمات).

(٢) انظر: William Muir, Life of Mohammad, rev. edn (Edinburgh: J. Grant, 1912), p.

xxviii.

(٣) حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، عاش في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، صاحب كتاب «تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس»، ويتناول في الأساس حياة النبي، ثم أضاف دراسة تاريخية للخلفاء العباسيين.

لا يتفق مع ما جاء فيه على طول الخط^(١). وبعد مرور عام توصل إلى أفكاره الخاصة ودراسته النقدية في هذا الموضوع من خلال كتابه الموسوم بـ«مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن». ورغم ذلك فقد اعتمد بوضوح في كتابه هذا على قائمة السور التي وردت في «تاريخ الخميس». ويبدو أنه حتى عام ١٨٤٤ كان كتاب الديار بكري هو المصدر الوحيد المعروف الذي يُعنى بذكر الترتيب الزمني لسور القرآن^(٢).

(١) هذا هو الاقتباس الأصلي باللغة الألمانية:

‘obgleich wir ihr nicht durchgängig beistimmen, mag sie doch dem Leser des Korans im Allgemeinen als Leitung dienen; nur vergesse er nicht, daß, besonders bei den größeren Suren, eine chronologische Bestimmung überhaupt nur von einem Theile ihres Inhalts gelten kann, während andere, wie mir schon gesehen, und noch in der Folge zeigen werden, einer frühern oder spätern Zeit angehören’ (Gustav Weil, Mohammed der Prophet, sein Leben und seine Lehre, aus handschriftlichen Quellen und dem Koran geschöpft und dargestellt (Stuttgart: Metzler, 1843), pp. 363–4).

(جميع الترجمات في النص هي لي).

(٢) وقف فايل على نسخة من اللائحة المذكورة فيها اختلاف بسيط، وجدها في مخطوطة أخرى لتاريخ الخميس، وقدمها المستشرق النمساوي المجري فون هامر-برجشتال، انظر:

Weil, Mohammed der Prophet, pp. 363–4.

وبعد مرور سنوات قليلة في ١٨٦٠ وقف نولدكه على عدد كبير من هذه القوائم في تاريخ اليعقوبي، وفهرست ابن النديم، وأنوار التنزيل لليضاوي، والإتقان للسيوطي، وفي مخطوطة تعود للقرن الخامس عشر لعمر بن محمد بن عبد الكافي، انظر: نسخة ١٨٦٠ من تاريخ القرآن، ص ٤٦-٤٩، ونسخة ١٩٠٩ ص ٥٩-٦٣.

وحري بنا أن نذكر في هذا الصدد أنه لم يتسنّ للمستشرقين الوصول إلى أبرز المخطوطات الإسلامية إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكان لألويس شبرنغر^(١) (١٨١٣-١٨٩٣) على وجه الخصوص دورٌ كبيرٌ في هذه الاكتشافات حين عاد من الهند سنة ١٨٥٦ ومعه مجموعة من الأجزاء النادرة يصل عددها إلى ١٩٧٢ مجلداً^(٢).

(١) شبرنغر (١٨١٣-١٨٩٣) مستشرق نمساوي، درس الطب واللغات الشرقية في جامعة فيينا، وفي عام ١٩٣٨ تحوّل على الجنسية الإنجليزية، حصل على الدكتوراه في اللاهوت من الجامعة الهولندية عام ١٨٤١ عن رسالة بعنوان: «أوليات الطب العربي في عصر الخلافة»، بعدها انتقل إلى الهند حيث عمل في شركة الهند الشرقية، ثم في سنة ١٨٤٤ صار عميداً للكلية الإسلامية بدلهي، وقد ترجم وحقّق عدداً من الكتب العربية التراثية، منها: «مروج الذهب للمسعودي، ١٨٤٢»، و«اصطلاحات الصوفية، لعبد الرازق الكاشاني، ١٨٤٤»، من أعماله أيضاً: «مختارات من المؤلفين العرب، كلكتا، ١٨٤٥»، و«تاريخ محمود الغزنوي، كلكتا، ١٨٤٧»، و«الجغرافيا القديمة للجزيرة العربية، برن، ١٨٧٥»، أشهر وأهم أعماله هو «محمد وتعاليم الإسلام». وقد رحل إلى مصر والشام للاطلاع على المخطوطات حول حياة النبي من أجل كتابة هذا الكتاب الذي صدر قسمه الأول في أباد عام ١٨٥١، ومنذ عام ١٨٦١ وإلى عام ١٨٦٥ صدر الكتاب في برلين في ثلاثة أجزاء تحت عنوان: «حياة محمد وتعاليمه، وفقاً لمصادر معظمها لم يستخدم حتى الآن»، (قسم الترجمات).

(٢) من بين ذلك سيرة ابن هشام، وأجزاء من طبقات ابن سعد، وكتاب المغازي للواقدي، وأجزاء من تاريخ الرسل والملوك للطبري، وموطأ مالك بن أنس، وكتب الحديث الستة. انظر ملحوظة تحتفي بهذا الحدث في:

Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft 11 (1857), p. 569.

جاءت دراسة تيودور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠) حول القرآن، وهي في الأصل أطروحة جامعية^(١)، مستوحاة بشكل كبير من منهج فايل، وخاصة التقسيم الثلاثي للفترة المكية. ومع ذلك، فإن نولدكه باعتباره أحد أنصار علم الفيلولوجي قد أسهم في تحرير الدراسات القرآنية من قيد البحث في حياة النبي واختار بدلاً من ذلك التركيز على القرآن لذاته. ويأتي المنهج الذي سار عليه نولدكه في مقابل منهج الاسكتلندي المعاصر له وليم موير (١٨١٩-١٩٠٥) الذي جاء بترتيب جديد للسور في كتابه «حياة محمد»^(٢). ثم ظهر هوبرت غريمه (١٨٦٤-١٩٤٢) في الجيل الذي تلا ذلك ليعالج القضية ذاتها في كتابه «محمد» الذي جاء في مجلدين^(٣). وإذا كان المجلد الثاني قد جاء في صورة دراسة لاهوتية للقرآن، فإن المجلد الأول الذي اتخذ شكل الرواية الاشتراكية لحياة محمد، شدد على ضرورة تحديد الترتيب الزمني لسور القرآن في أي دراسة تتناول حياة محمد وعقيدته^(٤). وقد اعتُبر المحتوى الفيلولوجي في كتاب تاريخ القرآن من

(١) انظر:

Theodor Nöldeke, De origine et compositione surarum qoranicarum ipsiusque Qorani (Göttingen: G.F. Kaestner, 1856).

(٢) يلي كل فصل من السيرة عرضٌ للسور مرتبة ترتيباً زمنياً وفق ما ينسبه موير إلى هذه الفترة. انظر على

سبيل المثال: موير، حياة محمد، ج ٢، ص ١٣٥. وقد ساق هذا الترتيب الزمني في كتابه:

The Corân, its Composition and Teaching and the Testimony it Bears to the Holy Scriptures (London: Society For Promoting Christian Knowledge, 1878), pp. 43-7.

(٣) انظر الهامش رقم ١، ص ٩ لمعرفة بيانات النشر.

(٤) انظر: Grimme, Mohammed, vol. 1, p. viii.

بين مواطن القوة، وأمارة على ثقل الكتاب ومصداقيته، وصانه إلى حدّ ما على الأقل من اجترار الأحكام الأخلاقية السائدة عن نبي الإسلام، وهي أحكام نجدها حاضرة بقوة في عمل كالذي كتبه وليم موير الذي أبدى حماسة تبشيرية واضحة، وبدا متشبهاً بتحديد الطبيعة الحقيقية لنوايا محمد ولحظة (سقوطه)^(١)، ومن الواضح أنّ شخصية محمد قد استحوذت على اهتمام موير، ويتجلى ذلك في هذا التقييم المعقد والغامض لحياة النبي الذي ضمنه الفصل الأخير من المجلد الرابع بعنوان شخص وشخصية محمد؛ حيث بساطة حياته وجميل طباعه واعتداله وشهامته تأتي جنباً إلى جنب في عبارات موير مع شدّته على أعدائه ومكره وخداعه^(٢).

ويبدو أنّ هذا التناقض والنظرة الدوغمائية لدى موير كان لها أثرٌ مباشر في الترتيب الزمني الذي جاء به. ويرى نولدكه أنّ الترتيب المغرض والغريب الذي جاء به موير لثمانية عشرة سورة يسميها (ملاحم)، وتشير إلى تاريخ سابق على إعلان محمد للنبوّة ما هو إلا محاولة من المؤلف لتبرئة محمد على الأقل لبعض الوقت، بعد أن بات يكتنّ له على ما يبدو نوعاً من الميل والعاطفة، من تهمة انتحال اسم الله في الكلام^(٣). كما أنّ الاستطراد والفرضيات التي تتناول

(١) انظر: Muir, Life of Mahomet, vol. 2, p. 73.

(٢) انظر: Muir, Life of Mahomet, vol. 4, pp. 302-24.

(٣) انظر: Geschichte (1860), p. 61; Geschichte (1909), pp. 76-7.

حالة محمد الوجدانية تتجلى بوضوح في دراسة هارتفيغ هيرشفيلد^(١) حول بنية القرآن وتفسيره، والتي أولت عناية خاصة إلى نفسية النبي أكثر من العناية بالنواحي الأدبية أو الفيلولوجية للنص القرآني^(٢).

وفي ضوء طبيعة الترتيب الزمني الذي ساقه نولدكه، تزداد القيمة العلمية لكتابه، تلك القيمة التي تقوم في الأساس على هذا التركيز الفيلولوجي الذي تجلى في كتابه. ففي الوقت الذي تبدو فيه بعض القوائم الزمنية غير مبررة كأنها فكرة طرأت لاحقاً على الدراسة الأساسية للمؤلف، نجد نولدكه يُعنى ببيان وجهة نظره وإيراد مبرراته، وخاصة فيما يتعلّق بالفترة المكّية، في حين أن موير وهوبرت غريمه على سبيل المثال لا يذكران إلا قدرًا محدودًا من المعلومات حول المنهج الذي اتبعاه، ويقتصران على تقديم الترتيب الزمني للقراء بكلّ بساطة. وفي المقابل نجد هيرشفيلد يسير على منهج تأملي عميق يقوم على

(١) هارتفيغ هيرشفيلد (١٨٥٤ - ١٩٣٤)، يهودي ألماني، حاصل على الدكتوراه من جامعة اشتراسبورج عام ١٨٧٨، هاجر بعدها إلى لندن ليصبح أستاذًا للّغات السامية بالكلية اليهودية بلندن، ثم مدرس اللغة العبرية والنقوش السامية بكلية الجامعة بجامعة لندن. معظم دراساته تدور حول القرآن وصلته باليهودية، أولها دراسته للدكتوراه «العناصر اليهودية في القرآن»، و«أبحاث جديدة في تأليف وتفسير القرآن»، (قسم الترجمات).

(٢) انظر على سبيل المثال ما يلي: «لا تكاد تجد موضعًا واحدًا يتّسم بطبيعة سردية لا ترد فيه لفظة (آية). وهذا يثبت مدى شعور محمد بالخيبة والإحباط لعدم قدرته على الإتيان بمعجزة»، (Hirschfeld, New Researches, p. 60).

تحديد مفصّل للأسلوب التعبيري القرآني (في السور المكيّة) وإعادة بناء افتراضية لتطوره المنطقي^(١). ومع ذلك تبدو دراسته متردّدة بين الدراسة الأدبية للموضوعات القرآنية والدراسة التاريخية لترتيب السور^(٢): فنجده يقول: بما أنه يتعيّن علينا التخلي عن فكرة إعادة بناء الترتيب الزمني للمواعظ والخطب، فربما نأمل من خلال التقسيم حسب الموضوعات أن نحصل على ما يشبه مسحاً للمادة التي يتألّف منها القرآن. ثم يضيف: لو نجحنا في إنجاز هذه المهمة، فيمكن حينئذٍ الاستغناء عن قضية تحديد تاريخٍ دقيقٍ لكلّ سورة من الوحي؛ إذ لا أهمية لمعرفة وقت نزول كثير من هذه السور.

في ضوء هذا الأمر، كيف ينبغي لنا أن نفهم السرّ وراء قراره المفاجئ في إضافة ملحق^(٣) الترتيب الزمني للسور والآيات؟ إنّ قرار هيرشفيلد هو دليل فيما يبدو على تغلغل النّسق الإسلامي للترتيب الزمني الذي بقي -رغم ما يثيره المعنيون بالدراسات الشرقية والإسلامية حول مضمونه- نموذجاً يُحتذى. وإن المحاولات الغربية لتصنيف القرآن تكشف التقيّد بنفس المسار، وأحادية البعد،

(١) يفترض هيرشفيلد وجود تتابع ضروري في الأساليب القرآنية (تأكيدي، وخطابي، وسردي، ووصفي، وتشريعي) قبل تصنيف السور والآيات وفق الفئات المحددة سلفاً. للتعرف على منهجه، انظر كتابه: New Researches، ص ٣٦.

(٢) انظر: Hirschfeld, New Researches, p. 36.

(٣) انظر الملحق بعنوان: Chronological Arrangement of the Revelations ضمن (Hirschfeld, New Researches, pp. 143-5).

والمعالجة الوافية للسور بنفس السرد والعدّ الذي سار عليه المسلمون. وإنّ هذا الاتصال بين السرد الإسلامي المعهود والمشاريع الاستشراقية يتجلى بوضوح في العمل الرائد الذي قدّمه فايل، والذي كان له كبير الأثر في دراسات موير ونولدكه وغريمه وهيرشفيلد.

ويقدّم فايل هذا العمل على أنه نسخة منقحة وأكثر تحفظاً لذلك الترتيب الذي ورد في تاريخ الخميس، وهذه الحقيقة التي يتم غضّ الطرف عنها في بعض الأحيان تفسّر لنا - كما يبيّن ولش - سبب تطابق الفترة الزمنية الأولى التي تشمل على ٣٤ سورة مع الترتيب الزمني الذي ساقه المسلمون، عدا مواضع بسيطة^(١). ومع ذلك، فعلى عكس ما يلّمح إليه ولش؛ فإن هذا التلاقي مع الترتيب الزمني المعهود لا يعدّ في هذه الحالة أمانة على اتباع منهج غير نقدي، بل هو اعتراف صريح بحدود محاولات الترتيب الزمني^(٢).

(١) مقالة لألفورد ولش بعنوان «القرآن في موسوعة الإسلام»، الإصدار الثاني.

(٢) «لا يمكن وضع ترتيب زمني محدّد لهذه السور... بسبب تشابه محتواها وشكلها، ولذا نذكر السور التي ننسبها إلى هذه الفترة سيراً على الترتيب الخاصّ بهذه السور في المصادر التراثية 'Ein genaue Zeitfolge dieser Suren ... läßt sich wegen der Gleichheit ihres Inhalts und ihrer Form nicht angeben; wir zählen daher diejenigen, welche wir in diese Periode setzen, nach der Ordnung her, wie sie in der schon erwähnten Tradition auf einander folgen' (Weil, Historisch-kritische Einleitung, p. 59)).

المبحث الثاني: مواطن القوة الرئيسية في تاريخ القرآن: التقسيم الثلاثي للفترة المكية:

بعيداً عن الرّزّانة العلمية للدراسة التاريخية التي اشتمل عليها كتاب تاريخ القرآن، فإن بساطة فكرة نولده ووضوح الحجة تشكّل مكمّن القوة في هذه الدراسة. ولا شك أنّ الإنجاز الأبرز لها يتمثّل في التنظير للفترات المكيّة الثلاث، والتي سبقه إلى تصوّرها غوستاف فايل. ويعتمد هذا التنظير على تحديد فئتين من السور يرى نولده أنهما قطبان في سلسلة متّصلة. ويتمثّل القطب الأول والفترة الزمنية الأولى في السور القصار ذات الأسلوب الإيقاعي التلميحى، بينما يتجسّد القطب الآخر في السور الطوال التي تعتمد الأسلوب السردي وتشبه السور المدنية كما يرى نولده؛ وتمثّل الفترة المكية الثالثة. أما الفترة الثانية فيرى نولده أنها تتألف من باقي السور المكية، التي لا تدخل تحت أي من الفئتين السابقتين، وإنما تجسد انتقالاً تدريجياً^(١). وفي الوقت ذاته يؤكّد على فكرة ضعف الأسلوب القرآني (أو أسلوب محمد حسب كلامه) وخفوت الحماس الأوّلي شيئاً فشيئاً والتكرار المستمر للأفكار نفسها التي كانت تسقط مرة إثر مرة على أرض مجدبة غير خصبة، وقد أثر هذا سلباً على الشكل الفني للعرض^(٢). في حين يرى ماركو شولير أنّ المنهج بسيط وعملي،

(١) انظر: : 72. Geschichte (1909), p. 57-8; Geschichte (1860), pp.

(٢) الاقتباس الأصلي باللغة الألمانية:

Die Gewalt der Begeisterung mußte sich allmählig vermindern, die stete Wiederholung derselben Gedanken, die dennoch immer wieder auf unfruchtbaren

يتخذ مسارًا وسطًا بين العمومية المفرطة من جانب والتعقيد المبالغ فيه من جانب آخر^(١)، ونتيجة لذلك اتسم باتساق شديد. ويهدف الترتيب الزمني الذي تبناه «تاريخ القرآن» أو على الأقل يجعل من القرآن نصًا يطور من أسلوبه بشكل تدريجي، مع التمسك في الوقت ذاته بالمبدأ النظري للتراجع الأسلوبي. وبما أن التحليل النصي والمبدأ النظري للتطور الأسلوبي يعززان بعضهما البعض، فإن برهان نولدكه - رغم ما يتضمنه من تسلسل ودوران - يبدو متينًا، علاوة على أنه موضوعي متجرد؛ نظرًا لاستناده إلى اعتبارات أسلوبية بدلًا من فرضيات نفسية ووجدانية^(٢). وفضلاً عن ذلك يقدم قراءة مُرضية للنص القرآني، وخاصة للنظرة الغربية الحائرة كما يبين بلاشير^(٣) فيقول:

=

Boden fielen, mußte nachtheilig auf die Form wirken, in der sie vorgetragen wurden' (Geschichte (1860), p. 90; Geschichte (1909), p. 118).

(١) انظر:

M. Schölller, art. 'Post-Enlightenment Academic Study of the Qur'ān' in Encyclopaedia of the Qur'ān.

(٢) وصفا الموضوعية والتجرد الذين تطلقهما الكاتبة على اشتغال نولدكه هنا مرتبطان بشكل أساس بكون فرضياته ليست وجدانية أو متخرصة بأمور نفسانية كما هي الحال في اشتغال موير، (قسم الترجمات).

(٣) يقول بلاشير:

'[Le reclassement chronologique] projette sur la Vulgate une clarté rassurante; il replace les textes en une perspective intelligible parce que liée au déroulement plausible de l'Histoire; il rend à la démarche occidentale sa signification et répond au désir de comprendre sans lequel on ne saurait aller plus en avant ...' (Blachère, Le Coran, p. 29).

«إنّ الترتيب الزمني يضيف على النسخة اللاتينية الشعبية من الكتاب المقدس (الفولغاتا) قدرًا من الوضوح المُطمئن؛ إذ يعيد وضع النصوص في منظور واضح يرتبط بالمسار التاريخي المنطقي، ويعيد للمنهج الغربي أهميته من جديد ويلبّي الرغبة في الفهم الذي لا يتسنى بدونه المضيّ قدمًا...».

ومع ذلك لا يتّضح بشكلٍ تامّ السبب في ضرورة أن يكون هذا التطوّر الأسلوبي تراجعًا ملحوظًا، وقد أثار هذا الأمر منذ البداية علماء من أمثال شبرنغر سنة ١٨٦١^(١). ومع ذلك فإنّ هذه النقطة بالغة الأهمية في التقسيم الزمني الذي جاء به نولدكه، الأمر الذي جعل شفالي عند شروعه في تنقيح هذا العمل بعد خمسين سنة يجد من الضروري التأكيد عليه وتقرير أنه قانون طبيعي وسنة كونية. فبيّن شفالي في النسخة التي صدرت عام ١٩٠٩ أنه لا داعي للتعجّب من هذا التطوّر فهو يوافق قانون الطبيعة، ولا يجوز للمرء أن يأسف لحصوله،

(١) انظر:

Aloys Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammad, nach bisher groesstentheils unbenutzen Quellen (3 vols. Berlin: Nicolaische Verlagsbuchhandlung, 1861-5), vol. 1, pp. xv-vi.

المبالغة في الاعتماد على فكرة الأسلوب هو المأخذ الأساسي على عمل نولدكه. انظر مقالة ولش بعنوان:

القرآن، ص ٤١٧، وانظر أيضًا:

Richard Bell, Introduction to the Qur'an (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1953); p. 102; Neal Robinson, Discovering the Qur'an: A Contemporary Approach to a Veiled Text (London: SCM Press, 1996), p. 93.

وذلك نظرًا إلى النجاح الذي كلل به^(١). ومحاولة شفالي الواهية في وضع نهاية لهذا الجدل، وتقرير الحجّة الأسلوبية التي أكد عليها «تاريخ القرآن» أفضت في النهاية إلى التأكيد على هشاشتها. فإنّ الحجّة الأسلوبية تظهر على حقيقتها في كونها مبدئًا وأوليًّا يمكن تحسينه لكن لا غنى عنه للبرهان النصّي، في الوقت الذي يحاول فيه المؤلف أن يأخذنا إلى نسخة الحقائق التي يتبناها عبر إقناعنا بالمبادئ التأويلية التي ستبدو في ضوءها هذه الحقائق جليّة غير قابلة للجدل^(٢).

إنّ البرهان الرئيس لنولدكه، ممثلًا في التقسيم الثلاثي للفترة المكيّة، قد سبق في الأساس لتعضيد كلامه عن الأسلوب؛ ولذا جاءت الفترة المكية الأولى في صورة تهدف لإبراز النبوة الحماسية وحديث القرآن عن الآخرة وفناء الدنيا. وباستثناء السور الأولى (العلق، والمدثر، والمسد، وقريش) والأخيرة

(١) يقول:

‘Man braucht sich über diese Entwicklung nicht zu wundern, da sie einem Naturgesetz entspricht, auch darf man sie angesichts des schließlichen Erfolges nicht bedauern’ (Geschichte (1909), p. 118).

ومع ذلك فإن بلاشير قد ساق حجة جديدة لتعضيد دعوى نولدكه من خلال الإشارة إلى وجود شيء غامض يمنع محمدًا، وهو أمر يشترك فيه محمد مع الرموز الصوفية الشهيرة مثل القديسة تيريزا الأفيلاوية،

انظر: Blachère, Introduction au Coran, pp. 256–9.

(٢) مثل ما كتبه المنظر الهرمنيوطيقي والأديب الأمريكي ستانلي فيش في تحليله لعملية التفسير والإقناع في كتابه:

Is There a Text in This Class? The Authority of Interpretive Communities (Cambridge MA: Harvard University Press, 1980), p. 339.

(الإخلاص، والكافرون، والفلق، والناس، والفاتحة) التي يتناولها نولدكه بشكل منفصلٍ نجده يقسم سور هذه الفترة إلى ثلاث فئات: فئة تتضمن هجوماً على الخصوم (سورة الكوثر، والهمزة، والماعون، والتكاثر، والفيل، والليل، والبلد)، وفئة ثانية صُنفت تصنيفاً سلبياً فلا تتعرض للخصوم ولا تصف فناء الدنيا ومجيء الآخرة (سورة الشرح، والضحى، والقدر، والطارق، والشمس، وعبس، والقلم، والأعلى، والتين، والعصر، والبروج، والمزمل)، ثم الفئة الأخيرة وهي الأكثر عدداً وتحدث عن فناء الدنيا^(١). وهو تصنيف غير مناسب، وقد غصّ الطرف تماماً عن مسألة الطمع والشَّره التي تشترك فيها عدة سور هي (الهمزة، والماعون، والتكاثر، والليل)، في حين اختزل هذا التصنيف سورة (الفيل) في الهجوم على أحد الخصوم، وهو ما أصبح ماضياً في هذا التوقيت، في حين صُنفت اثنتي عشرة سورة بشكل سلبي، غير أن هذا التصنيف يتيح لنولدكه المجال للتأكيد على الفئة الأخيرة، والتي تجسد على نحو ملائم السمات الأسلوبية التي يضيفها على الفترة المكية الأولى. وهذا الاحتفاء الذي قدّم به سور الفئة الثالثة يبيّن مدى أهميتها للبرهان الذي ساقه المؤلف^(٢)، فنجده يقول:

(١) انظر بتصرف يسير: Geschichte (1860), p. 73; Geschichte (1909), p. 91

(٢) يقول:

‘Jene Sûren sind die großartigsten des ganzen Qorâns und in ihnen tritt die leidenschaftliche Erregung des Propheten am mächtigsten hervor. Es ist, als ob man mit Augen sähe, wie die Erde sich aufthut, die Berge zerstieben und die Sterne

«ما من سور أخرى في القرآن تضاهي هذه السور في روعتها وفي إبرازها الانفعال الشديد الذي كان يعتري النبي. وكأن المرء يرى بأّم عينيه كيف تنشق الأرض وتنفطر الجبال وتتساقط الكواكب».

ثم نجده على الجانب الآخر يؤكد في المقابل على البعد «الواهي» لسور الفترة المكية الثالثة فيقول^(١):

«اللغة تصبح مطنبة، واهية، نثرية؛ التكرار الذي لا نهاية له، ولا يتورّع النبي عن ترداد الكلمات نفسها تقريباً، البراهين التي تفتقر إلى الوضوح والحدّة، ولا تقنع إلا من يؤمن سلفاً بالنتيجة النهائية، والقصص التي لا تأتي إلا بالقليل من التنوع، كلّ هذا يجعل الآيات والسور مملّة في كثير من الأحيان...»^(٢).

=
durcheinander geworfen werden' (Geschichte (1860), p. 78; Geschichte (1909), p. 98).

(١) يقول (بتصرف يسير):

‘Die Sprache is gedehnt, matt und prosaisch, die ewigen Wiederholungen, bei denen der Prophet sich nicht scheut, fast dieselben Worte zu gebrauchen, die aller Schärfe und Klarheit entbehrende Beweisführung, die Niemanden überzeugt, als den, welcher schon von vorn herein an das Endresultat glaubt, die wenig Abwechslung bietenden Erzählungen machen die Offenbarungen oft geradezu langweilig ...’ (Geschichte (1860), p. 107; Geschichte (1909), p. 143

(٢) هذه الترجمة وغيرها من الاقتباسات التي تأتي مأخوذة عن النسخة العربية من كتاب «تاريخ القرآن»،

من منشورات الجمل. (المترجم)

وعلاوة على ذلك فإن المنطق الذي قام عليه التقسيم الزمني للمرحلة المكيّة، وأبرز الفترتين الأولى والثالثة؛ قد أدى إلى تجريد سور الفترة الثانية من أي طابع عام وتقديمها على أنها مجرد تدرّج وانتقال من المرحلة الأولى إلى الثالثة. فيقول نولدكه: كما سبقت الإشارة إليه، ليس لهذه السور أي طابع مشترك، بعضها يشبه سور الفترة الأولى، بينما البعض الآخر يشبه سور الفترة الثالثة^(١). ولا شك أن هذا أمر مفاجئ؛ إذ أن سور الفترة الثانية من الممكن أن يقال عنها - بل قد قيل - أنها تشكّل مجموعة متجانسة تتسم باستخدام صفة الرحمن على وجه الخصوص^(٢). وقطعاً فإن نولدكه يدرك السمات المترابطة لهذه السور، ولكن حتى لا يحدد عن المنطق الذي ساقه في برهانه نجده يحاول التقليل من أهميتها^(٣).

إن تقسيم نولدكه للسور المكية وفق فرضية التراجع في الأسلوب لا يخلو من أثر على النصّ القرآني؛ فإن بنية القرآن تبدو أكثر سلاسة، كما أنها خطيّة ذات بعد

(١) يقول:

‘Schon oben bemerkten wir, daß diese Sûren keinen bestimmten gemeinschaftlichen Charakter haben, sondern daß einige mehr denen der ersten, andere denen der dritten Periode ähnlich sind’ (Geschichte (1860), p. 89; Geschichte (1909), pp. 117-8).

(٢) انظر: Sprenger, Das Leben, vol. 2, p. 213; and, more recently, R. Blachère, Le

Coran (Paris: Maisonneuve-Larose, 2005), pp. 13-15; and Angelika Neuwirth, Studien zur Komposition der mekkanischen Suren (Berlin: W.D. Gruyter, 1981).

(٣) وفي الختام يلفت الأنظار إلى بعض خصائص سور هذه الفترة. انظر:

Geschichte (1860), pp. 91-2; Geschichte (1909), pp. 119-21.

أحادي. وهي نتيجة تختلف تماماً عما أعربت عنه أنجيليكا نويفرت^(١) بشأن البنية القرآنية، وأنها بمثابة توسع نصي وإضافات للنواة الأصلية. وبينما تحتفي نويفرت بإرث نولدكه إلا أن دعوتها لتبني قراءة ديناميكية للقرآن تكشف عبر باطن النص وظاهره عن عملية التواصل التاريخي المستمر الذي يميّز القرآن عن باقي الكتب المقدّسة، هذه الدعوة تمثّل تحوُّلاً ملحوظاً في وجهة النظر. وفي هذا الإطار فإنّ تطوُّر القرآن لم يعد تتابعاً خطياً لخطابات أحادية، بل بات حواراً مستمراً يطرح التساؤلات ويقدمّ الإجابات، ليعود من جديد ويثير التساؤلات ويعرض الإجابات^(٢).

(١) أنجيليكا نويفرت (١٩٤٣-) من أشهر الباحثين الألمان والأوروبيين المعاصرين في الدراسات القرآنية والإسلامية، من جامعة برلين الحرة، وكانت مديرة مشروع «كوريس كورانيكوم»، وعملت كأستاذة للدراسات الإسلامية في عدد من الجامعات حول العالم، برلين، طهران، ميونيخ، وكذلك كأستاذة زائرة في جامعة عمان، ولها عدد من الكتابات والدراسات المهمة في مجال القرآن ودراساته، (قسم الترجمات).

(٢) انظر:

Angelika Neuwirth, 'Meccan Texts – Medinan Additions? Politics and the Re-Reading of Liturgical Communications' in R. Arnzen and J. Thielmann (eds), Words, Texts and Concepts Cruising the Mediterranean Sea: Studies on the Sources, Contents and Influences of Islamic Civilization and Arabic Philosophy and Science (Leuven: Peeters Publishers, 2004), pp. 73–93, p. 75.

تزعّم أنجيليكا نويفرت أن إرث نولدكه يتمثّل بشكلٍ خاصّ في تعامله مع السورة كوحدة وتقسيمه الثلاثي للفترة المكية. انظر كتابها بعنوان: Studien، (ص ١٧٥)، ومقالة لها ضمن موسوعة القرآن بعنوان:

=

المبحث الثالث: أهو ترتيب زمني للسور؟

لو سلّمنا جدلاً بالأساس المنطقي الذي استند إليه التقسيم الثلاثي للمرحلة المكيّة؛ فإنّ الغموض لا يزال يكتنف الأسباب التي تقف وراء الترتيب الفعلي للسور المكيّة داخل كلّ فترة^(١). ومن الصعب الجزم بأن نولدكه قد قصد بذلك ترتيباً زمنياً صارماً، فإنّ القارئ لكتاب «تاريخ القرآن» سيصطدم بأدلة متعارضة. وفي المقابل فإنّ نولدكه يقرّر صراحة استحالة الوقوف على التسلسل الزمني

=

‘Form and Structure of the Qur’ān’، ولمعرفة المزيد حول منهج النمو الأساسي عندها، يمكن

الاطلاع على دراسة لها حول سورة الحجر بعنوان:

Referentiality and Textuality in Sūrat al-Hijr: Some observations on the Qur’anic “Canonical Process” and the Emergence of a Community’ in Issa J. Boullata (ed.), Literary Structures of Religious Meaning in the Qur’ān (Richmond: Curzon, 2000), pp. 143–72, esp. pp. 158–60;

وكذلك تحليلها للقراءة القرآنية لقصة العجل الذهبي في " Meccan Texts – Medinan " "Additions?"

ويسوق نيكولاي سيناوي في "The Qur’an as Process" منهج تناص قوي مشابه، وفي الوقت ذاته يحاول تبرير عمل نولدكه في وضع ترتيب تاريخي للقرآن. وينبغي فهم هذا التواصل في ضوء الاستقطاب الحالي في حقل الدراسات القرآنية بين المنهج التاريخي النقدي والمنهج الشكلي. انظر على سبيل المثال:

Neuwirth, ‘Form and Structure’.

(١) يمكن المقارنة بين منهج نولدكه ومنهج غريمه الذي لا يبين المنطق الذي سار عليه في التقسيم الثنائي للفترة المكيّة (والذي يضيف إليه فترة قصيرة تنوسطهما)، ولكنه يوضّح في ترتيب السور المذكورة في كلّ فترة: أنه نظراً لعدم وجود معلومات وتوخياً للحذر يضطر إلى اتباع ترتيب السور في المصحف العثماني لكن بصورة معكوسة. انظر: غريمه، محمد، ج٢، ص ٢٤.

الدقيق للسور القرآنية؛ إذ يشكّ في أن محمداً نفسه بمقدوره ذلك^(١). ومع ذلك ينأى بنفسه عما أقدم عليه موير في هذا الصدد، ويرى أن أكبر خطأ وقع فيه موير هو الافتراض بإمكانية وضع ترتيب تاريخي للسور القرآنية^(٢). وعليه يبدو من الواضح أن سور الفترات المكيّة لا ترد وفق ترتيب زمني كما يلمّح نولدكه نفسه^(٣).

على الجانب الآخر، كيف يجدر بنا أن نفهم المنطق المتبع في ترتيب ورود هذه السور لو خلا من أي دعوى بوجود ترتيب زمني؟ ولأن نولدكه نفسه لا

(١) يقول: «وهل من أحد يؤدّ الافتراض أن محمداً كان لديه أرشيف رتبّ فيه السور بحسب تسلسلها الزمني»، والاقْتباس الأصلي بالألمانية:

Oder will man etwa annehmen, daß Muhammad ein Archiv führte, in welches die Sûren nach ihrer Chronologie eingetragen wären?) (Geschichte (1860), p. 48; Geschichte (1909), p. 62).

(٢) يقول:

‘Ein Hauptfehler Muir’s ist bei dieser Eintheilung, daß er auch im Einzelnen die Sûren genau chronologisch anzuordnen sucht; zwar ist er bescheiden genug zu gestehen, daß er seinen Zweck noch nicht ganz erreicht habe, doch ist dieser Zweck selbst eben unerreichbar’ (Geschichte (1860), p. 59; Geschichte (1909), p. 73).

(٣) للاطلاع على الفترة المكيّة الأولى، انظر: النسخة الألمانية من تاريخ القرآن، طبعة ١٨٦٠، ص ٧٣، وطبعة ١٩٠٩، ص ٩١. وكذا للاطلاع على الفترة المكيّة الثانية، انظر: ص ٩٣ في طبعة ١٨٦٠، وص ١٢١ في طبعة ١٩٠٩، أما الفترة المكيّة الثالثة فتد في صفحة ١٠٨ من طبعة ١٨٦٠ و صفحة ١٤٤ في طبعة ١٩٠٩. وبخلاف ما كتبه نيل روبنسون؛ فإن نولدكه لم يقصد وضع ترتيب زمني دقيق للسور، بينما كان شفالي أكثر حذرًا وأقرّ أن ترتيب السور في هذه الفترات الأربعة هو ترتيب تقريبي. انظر: (Robinson, Discovering the Qur’an, p. 77.

يسوق الأسباب على إيراد هذه السور بعينها في هذه الفترة الزمنية أو تلك، من ذلك مثلاً وضعه سورة الصافات ونوح والإنسان والدخان بعد سورة القمر، فإن للقارئ أن يتساءل عن مدى وجود تصوّر زمني لديه في هذا الترتيب. وعلاوة على ذلك نجد في طبعة سنة ١٨٥٦ وكذلك ١٨٦٠ وردت بعض السور بأرقامها فقط دون أي معلومات أخرى، مما يظهر منه أيضاً وجود هدف محدد من حيث الترتيب الزمني^(١).

إنّ نشر عمل نولده على مدار خمسة عقود، منذ أن قدم أطروحته الجامعية سنة ١٨٥٦ حتى مشاركته في تنقيحها سنة ١٩٠٩ على يد تلميذه فريدريش شفالي، قد يكون هو السبب وراء هذا الغموض واللّبس. ومن الجلي أن نسخة ١٨٦٠ لا تكرر كلّ ما ساقه نولده من آراء حول الترتيب الزمني في أطروحته سنة ١٨٥٦. فعلى الأقلّ هذا هو الحال بالنسبة لسورتي الواقعة والطور. ففي أطروحته الجامعية المختصرة يشير نولده إلى التقارب بين الآية السابعة عشرة

(١) تذكر الأطروحة الجامعية سنة ١٨٥٦ أن هذه السور هي: (الفترة المكية الأولى)؛ سورة القارعة، وسورة البلد، والمرسلات، والأعلى، والتين، والعصر، والحاقة. (المكية الثانية)؛ سورة ق، وسورة الملك. (المكية الثالثة)؛ سورة الجاثية، وسورة سبأ، وفاطر. أما في الطبعة الأولى من نسخة سنة ١٨٦٠ فتظهر سورة الجاثية وفاطر، ويضاف إليها الآن الغاشية، بهذا الشكل البسيط الملغز. وفي نسخة ١٩٠٩ يضيف شفالي تعليقا موجزا على كلّ سورة. انظر على سبيل المثال: سورة الغاشية في «تاريخ القرآن» (١٨٦٠)، ص ٨٢، وفي نسخة (١٩٠٩)، ص ١٠٤.

من سورة الطور ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ﴾ مع الآية الثانية عشرة في سورة الواقعة ﴿فِي جَنَّتٍ النَّعِيمِ﴾، وعنده أن آية سورة الواقعة تمثل من خلال مستوى دقتها الأكبر، تدرّجاً في تصوير الآخرة^(١). وفي نسخة ١٨٦٠ نجد تسلسل هاتين السورتين كما هو لكن دون ذكر للاستدلال الذي حلّ محله إشارة إلى اختلاف آراء المفسرين حول أصل بعض الآيات في سورة الواقعة^(٢).

فضلاً عن ذلك، يبدو أن هدف نولدكه في الترتيب الزمني قد تطوّر في هذه الطبعات الثلاث. وكما يبيّن هو نفسه، فقد ظنّ وقت تقديم أطروحته الجامعية أنّ وضع ترتيب زمني للسور القرآنية أمرٌ ممكن ومشروع علمي يمكن تحقيقه، لكنه وبشكلٍ تدريجي خلال دراساته بات مقتنعاً بالقيود والصعوبات في هذا الصدد^(٣). ولذا فإنّ طبعة ١٨٦٠ تُبقي على بعض عناصر الثقة الأولى التي كانت عند نولدكه، وفي الوقت ذاته احتوت على قدرٍ كبيرٍ من الفقرات الحذرة.

(١) انظر: Nöldeke, De Origine et compositione, pp. 44–5.

الآيات القرآنية الواردة في هذا البحث مأخوذة من طبعة المصحف في القاهرة. ونظراً لأن نولدكه وشفالي يستخدمان ترقيم الآيات الذي سار عليه فلوجل (انظر: Corani textus arabicus (Leipzig: Typis et sumtibus Caroli Tauchnitii, 1834)، فإن اختلفت النسختان يُشار إلى ذلك في الهامش.

(٢) انظر: Geschichte (1860), p. 83; Geschichte (1909), pp. 105–6.

جدير بالذكر أن تتابع السورتين لا يمثل أي تسلسل زمني دقيق، وإنما هو تسلسل نسبي. وليس في كلام نولدكه ما يفهم منه أن سورة الواقعة تلي الطور مباشرة، مع العلم أن سورة الطور تبدو أسبق منها.

(٣) يقول:

=

وهذا الحذر يتجلى بشكل أكبر في طبعة ١٩٠٩ من تاريخ القرآن، حيث يقلل شفالي من شأن هذا التصلب في عمل سلفه في بعض الحالات وأهمية الروايات التراثية (كالتى تبين أسباب النزول). ونظراً لأن شفالي قد قصر نفسه طواعية وبشكل مؤلم إلى حد ما، على بعض التعديلات الطفيفة^(١)، فإن النتيجة التي حصلنا عليها ترقيعات نصية مربكة تتضمن مواقف متناقضة حيال مشروع الترتيب الزمني.

ومن النماذج البليغة التي تبين أثر التأليف المشترك بين عدة مؤلفين ما ورد في طريقة معالجة الآيات الخمس الأولى من سورة (العلق) في الفترة المكية الأولى؛ فإن نولدكه قد بدأ بالتأكيد على أنه لا يجد في رأي موير على الأقل ما قد يدفعنا إلى التخلي عن الرؤية المتعارف عليها لدى المسلمين، ومفادها أن هذه الآيات الخمس هي أقدم ما في القرآن، وأنها تتضمن إيدان محمد بالنبوة. بل يقترح إعادة قراءة هذا الحدث عبر الملاحظة الدقيقة للكلمات التي

‘Daß sich unter den mekkanischen Suren zwar einzelne Gruppen ausschieden lassen, nicht aber eine im Einzelnen irgend genaue chronologische Anordnung aufgestellt werden kann, ist mir immer klarer geworden, je öfter und genauer ich den Qorân untersucht habe. Manches Indicium, das ich mir zu diesem Zwecke gemerkt hatte, hat sich mir als unzuverlässig bewiesen, und Manches, was ich früher las ziemlich gewiss behaupten zu dürfen glaubte, erwies sich bei wiederholter und sorgfältiger Prüfung als unsicher’ (Geschichte (1860) p. 59; Geschichte (1909), p. 74).

(١) كما كتب في مقدمته، انظر: Geschichte (1909), p. vii.

استخدمتها السورة مع مراعاة الروايات الواردة في هذا الشأن^(١). والحديث عن بداية النبوة يستمر حتى سورة المدثر التي يرى بعض علماء المسلمين أنها تنهي فترة انقطاع الوحي التي تلت الآيات الأولى. ومع ذلك يلمح شفالي في طبعة ١٩٠٩ إلى الشكوك المثارة حول السمة التأسيسية للآيات الخمس الأولى من سورة العلق^(٢)، فيقول: «ما إذا كانت الآيات ١-٥ من سورة العلق بالفعل أول ما نزل من القرآن فمسألة لا يمكن حسمها...؛ بل إن هذه الكلمات يمكن فهمها من حيث المضمون على أنها قيلت في وقت نُقل فيه إلى النبي مقطع جديد من الكتاب السماوي».

ومع ذلك يُبقي شفالي على الترتيب الذي أورده نولدكه في نسخة ١٨٥٦، و١٨٦٠ (سورة العلق، المدثر، المسد، قريش)، علاوة على تسلسل الأفكار والانتقالات التي أوردها سلفه. ولذا فبعد أن جادل في الآيات الخمس الأولى من سورة العلق وكونها الأقدم، يعود إلى الرواية المعهودة التي تقرّر أن هذه الآيات هي أقدم ما في القرآن: «من بعد أن أحسّ محمد بأنه مدعو ليكون نبياً،

(١) انظر: (Geschichte (1860), p. 64.

(٢) يقول:

‘Ob freilich Süre 96, 1–5 das älteste aller Qoränstücke ist muss dahingestellt bleiben ... Ihrem Inhalt nach lassen sich die Worte vielmehr aus jeder Zeit verstehen, in der dem Propheten ein neuer Abschnitt aus dem himmlischen Buche mitgeteilt wurde’ (Geschichte (1909), p. 83).

بقي كما يظهر غير واثق من أمره تماماً^(١). والقارئ الذي يغفل عن هذه الطبقات المتعددة في كتابه «تاريخ القرآن» سيبقى حائرًا بلا شك حين يجد هذا التذبذب المتكرر للمؤلف (المؤلفين) في نسخة ١٩٠٩^(٢).

إنَّ أبرز إسهام لشفالي في النسخة المنقحة من «تاريخ القرآن» هو التشكيك المنهجي في الروايات التراثية من قبيل أسباب النزول. وقد كان نولدكه حذرًا حيال طبيعة هذه الروايات المشكوك فيها^(٣)، ولذا عمد إلى تقييم كل رواية على حدة فقبَّل بعضها ورفض الآخر. ولهذا وجدنا نولدكه يستعين بهذه الروايات، مثلما فعَّلَ فايل وموير وغريمه وهيرشفيلد، عند تحديد تاريخ للسور أو الآيات المدنية على وجه الخصوص. ومع ذلك فليس لهذا النوع من المعطيات التراثية أي قيمة تاريخية في نظر شفالي إلا في حالات استثنائية؛ وذلك حين تضرَّ بصورة النبي، كما هو الحال في الرواية التي تتحدث عن سعي محمد لممالة الكفار (فيما يُعرف بالآيات الشيطانية، في سورة النجم)، وكذلك عتاب الربِّ له على

(١) يقول: 'Nachdem Muhammed sich zum Propheten berufen fühlte, war er doch, wie es scheint, seiner Sache noch keineswegs sicher' (Geschichte (1909), p. 84).

هذه العبارة هي إعادة صياغة لما قاله نولدكه في كتابه، انظر: Geschichte (1860), p. 66.

(٢) مثال آخر لهذا الترييق النصِّي يتجلى في التعليق على الآية الثالثة والسبعين من سورة المائدة، حيث

يبدو شفالي غير مطمئن لكلام نولدكه وإن لم يرفضه تمامًا. انظر: Geschichte (1860), p. 130; and

Geschichte (1909), p. 175

(٣) انظر: : Geschichte (1860), p. 45; Geschichte (1909), p. 58.

موقفه من الأعمى في سورة عبس، أو حادثة الإفك التي اتهمت فيها عائشة كما في سورة النور في الآيات ١١-٢٠^(١). أما غالبية الروايات الأخرى فيعتبرها خليطاً من جمع المفسرين، كما يحلو له أن يصفها دوماً^(٢). وفي حالات كثيرة نجد شفالي يصرّ على الطبيعة العامة لغالبية السور القرآنية، حيث لا فائدة من البحث حينئذٍ عن سمة خاصّة أو حادثة بعينها. ويسير على هذا المنوال حتى في المواضع التي عُرِفَتْ بمجيئها في واقعة بعينها، من ذلك مثلاً كلمة ﴿شَانِئَكَ﴾ التي جاءت في سورة الكوثر أو الآية التي تشير إلى هزيمة البيزنطيين في مطلع سورة الروم^(٣). وفي موضع آخر، لا يجد شفالي بدءاً من الإقرار بصحة واقعة معينة من الناحية التاريخية؛ لورود شواهد عليها في قصيدة هجاء نظمها حسان بن ثابت، لكنه يتجاهل أي رابط بينها وبين الآيات القرآنية (وتحديداً الآيات من

(١) هذه الاستخدامات من قبل شفالي للمرويات التراثية والتي تشير لها الكاتبة، تعبّر عن انتقائية كبيرة في التعامل مع هذه المرويات، وأن استخدامها يخضع لأفكار مسبقة حول الإسلام وحول النبي، وأن استعادتها الغرض من تثبيت صور قروسطية عتيقة عن الإسلام والنبي كان الأولى بالمستشرق مواجهتها علمياً بعد وصوله للمصادر والمناهج التي لم يصل إليها أسلافه بدلاً من تغذيتها، وهي ممارسة لا تقتصر بالطبع على شفالي، بل تشيع في كتابات عدد لا بأس به من المستشرقين. (قسم الترجمات).

(٢) انظر على سبيل المثال: Geschichte (1909), p. 91, p. 218, p. 212, p. 220, p. 225.

(٣) انظر: Geschichte (1909), p. 92 and p. 150.

للمقارنة بين موقف نولدكه سنة ١٨٦٠ حيال هذه المواضع، انظر: Geschichte (1860), p. 73 and p. 111.

١٠٥ إلى ١١٥ في سورة النساء^(١)، لأنّ المفردات القرآنية لا تدعمها على ما يبدو؛ ولذا فلا بد من النظر إليها على أنها نموذج آخر من اختلاقات المفسرين أو اختراعاتهم التفسيرية على حدّ قوله^(٢).

وفي ضوء تصنيف فريد دونر^(٣) للبحث النقدي الحديث حول بدايات الإسلام^(٤) يمكن القول أن نولدكه أضطر إلى تبني منهج نقد المصادر؛ إذ يرى إمكانية الجمع بين الروايات التراثية المختلفة أو على الأقل تحديد الراجح

(١) سورة النساء، الآيات (١٠٦-١١٥) وفقاً لنسخة فلوجل، كما نقلها نولدكه وشفالي.

(٢) انظر: Geschichte (1909), p. 203، ويؤيد نولدكه في طبعة ١٨٦٠ هذه الرواية التراثية. انظر:

Geschichte (1860), p. 151.

(٣) فريد دونر (١٩٤٥-) مستشرق أمريكي، ولد في واشنطن، حصل دونر على الدكتوراه من جامعة برنستون في دراسات الشرق الأدنى في سنة ١٩٧٥، ثم أصبح رئيس قسم المعهد الشرقي ولغات وحضارات الشرق الأدنى بجامعة شيكاغو، تتركز دراساته في الإسلام المبكر، وهو أحد مشايخي الاتجاه التنقيحي، وله أطروحة في كتاب «محمد والمؤمنون: في أصول الإسلام، ٢٠١٠»، تشابه أطروحة باتريشيا كرون عن أصول الإسلام الأولى، حيث يرى أن ثمة جماعة من المؤمنين تحلقت حول النبي محمد، وكان في هذه المجموعة مسيحيون ويهود، ثم حدث في القرون اللاحقة انفصال للمسلمين لتأسيس هوية خاصة، كما يشايح آراء وانسبرو عن تأخر تدوين القرآن وتقديسه، له عددٌ من الكتب، منها: «الفتوحات الإسلامية المبكرة، ١٩٨١»، و«سرديات أو روايات نشأة الإسلام، ١٩٩٨»، (قسم الترجمات).

(٤) انظر:

Fred Donner, Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Islamic Historical Writing (Princeton: Darwin Press, 1998), pp. 5-25.

منها^(١). بينما تبنى شفالي في المقابل منهجاً لنقد الروايات مؤداه أن التركيز على الرواية الشفهية الطويلة لهذه الأخبار يضعف احتمالية الخلوص إلى أي معلومات دقيقة.

إنّ التنقيح النقدي الذي أجراه شفالي يقوِّض بشكلٍ ما عمل نولدكه؛ إذ كان من نتائجه المباشرة على سبيل المثال أن أضحي الاستدلال على الترتيب التاريخي للسور المدنية (سورة المنافقون، وسورة التحريم، وسورة الممتحنة) الذي اعتمد فيه نولدكه على أسباب النزول فحسب، استدلالاً عقيماً لا معنى له، رغم أن شفالي أبقى على الترتيب الذي ذكره سلفه. وعلاوة على ذلك، يلمّح منهج شفالي إلى تشكيك عام في الإطار المفاهيمي الناجم عن بعض النصوص الإسلامية بما في ذلك نسق الترتيب الزمني وأبعاده الخطية والشاملة. ولذا فإنّ نسخة ١٩٠٩ التي تعدّ باكورة الأعمال في هذا الصدد تشتمل في الوقت ذاته على بذور تقويض المشروع الاستشراقي لوضع ترتيب زمني.

(١) على الرغم من أن بعض مواقف نولدكه يمكن أن تكون بسبب (جرأة الشباب)، كما كتب عن نفسه في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب «تاريخ القرآن»، إلا أنه تقيّد بمنهج نقد المصادر طوال حياته. انظر مقالته في نقد منهج هنري لامنز:

Theodor Nöldeke, 'Die Tradition über das Leben Muhammads', Der Islam 5 (1914), pp. 160–70

إنَّ السعي وراء ترتيب زمني للقرآن، ترد فيه السور القرآنية واحدة تلو الأخرى بشكلٍ خطّي أحادي الأبعاد يسير في اتجاه واحد؛ هو أمر ثابت في عدد من المصادر الإسلامية التراثية التي أوردت لائحة بترتيب السور. وإذا كان نولدكه يؤكد في أكثر من موضع على أنه لا يرى إمكانية وضع ترتيب زمني دقيق؛ فإن المعالجة النقدية للمصادر والمعطيات التراثية تدفعه للاعتقاد بإمكانية الوصول إلى ترتيب يقترب من الترتيب الأصلي للمادة القرآنية^(١). وفي ضوء تجربة ريتشارد بيل^(٢)، بصرف النظر عن رأينا فيها، فقد ثبت أن التصنيف الزمني للقرآن يصبح أشد تعقيداً وأمرًا غير ممكنًا في حال أردنا الاعتماد على سرديات بعيدة كل البعد عن الروايات الإسلامية المشهورة. ولا ريب أن المنهج الأولي لنولدكه مقرونًا بموقف شفالي النقدي يؤدي إلى توتر أكيد في نسخة ١٩٠٩ المنقحة. ومن عجيب المفارقات هنا أن هذا التوتر، رغم أثره في تقويض مصداقية كتاب «تاريخ القرآن» إلا أنه قد أضفى عليه منزلة خاصة. فإن تعاقب اثنين من المؤلفين على هذا الكتاب كان له أثره في الوقت ذاته وعلى نحو

(١) قارن على سبيل المثال تقديم نولدكه وشفالي لسورة مريم: فبينما يقرر نولدكه أنها أول سورة تذكر اسم عيسى، يقيد شفالي هذا التقرير فيضيف عبارة: «أو على الأقل من أوائل السور». انظر: (Geschichte (1860), p. 99, Geschichte (1909), p. 130).

(٢) ريتشارد بيل (١٨٧٦ - ١٩٥٢)، مستشرق بريطاني، أستاذ اللغة العربية بجامعة أدنبرة، له اهتمام كبير بالقرآن؛ حيث كتب حول أسلوب القرآن ومتشابه القرآن، كما أنه اهتم بعلاقة القرآن وعلاقة النبي بالمسيحية، كما أنه ترجم القرآن في ترجمة وإعادة ترتيب (١٩٣٧ - ١٩٤١)، (قسم الترجمات).

متناقض في تلبية الحاجة المتزايدة في هذا المجال للتعامل بحذر مع المرويات والمعطيات التراثية، وكذلك في تلبية حاجة العلماء الباحثين عن وسيلة ناجعة ملموسة في ترتيب سور القرآن، فبات بإمكانهم الاستفادة مما ورد في محتوى تاريخ القرآن في صورة لائحة لترتيب زمني تام^(١).

(١) للاطلاع على مثال مثير وملغز حقاً يتجلى فيه استخدام التسلسل الزمني الذي ورد في كتاب تاريخ القرآن في الدراسة الموضوعية للقرآن، انظر: دراسة روبنسون التي تناول فيها تغير هوية الصحابييات في الآخرة، وذلك في: Robinson, Discovering the Qur'an, pp. 87-9. ومن العلماء من اختزل محتوى تاريخ القرآن في صورة لائحة تاريخية رغم أنهم لا يستخدمونها في إجراء دراسات موضوعية حول القرآن. من هؤلاء على سبيل المثال: بيل (Introduction to the Qur'an, pp. 110-14)، وولش ('al-Kur'ān', pp. 416-7). انظر أيضاً: عدة مقالات كتبها أوشانيسي حول التحليل التاريخي للمصطلحات والمفاهيم القرآنية، منها على سبيل المثال:

The Seven Names for Hell in the Qur'ān', Bulletin of the School of Oriental and African Studies 24:3 (1961), pp. 444-69;

وكذا مقالته بعنوان:

'The Qur'ānic View of Youth and Old Age', Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft 141 (1991), pp. 33-53.

ومع ذلك فقد استخدم في النهاية الترتيب الزمني الذي جاء به بلاشير على حد ما صرح هو بنفسه حين قال: ترتيب السور هنا مأخوذ عن نولدكه - شفالي، علاوة على التعديلات التي أضافها بيل وأيضاً بلاشير على وجه الخصوص (The Seven Names for Hell', p. 447)، ومع ذلك تظل نفس الملاحظات الواردة أدناه قائمة. ومؤخراً اعتمد ديفيد مارشال في دراسته للعلاقة بين المؤمنين وغيرهم على الترتيب الزمني الذي ساقه نولدكه وإن راعى ما أضافه بلاشير.

انظر: (David Marshall, God, Muhammad and the Unbelievers: A Qur'anic)

=

لا شك أن اختزال محتوى «تاريخ القرآن» في صورة لائحة ترتيب زمني، رغم أنه قطعاً لا يشبهها، يغض الطرف عن الكثير من أوجه الحيرة والتردد علاوة على ما في ذلك من تجاهل لتحذيرات المؤلف. فبداية، هذا الغياب المتواصل لبرهان مناسب على ترتيب ورود السور بهذه الطريقة يوحي بالعشوائية والاعتباط، ويتجلى هذا بوضوح في الفترة المكيّة الثانية؛ فرغم أن نولدكه يقرّر أن السور التي ينسبها إلى تلك الفترة الزمنية يمكن ترتيبها ترتيباً زمنياً (على نحو أكثر سهولة)، إلا أنه لا يعطي القارئ أي دليل على ذلك^(١). وغياب المنطق في هذا الترتيب الزمني يؤكد على أن كلام نولدكه الذي سبقت الإشارة إليه هو في حقيقته مجرد كلام نظري، ينبغي تناوله في ضوء تبريره للتقسيم الثلاثي للمرحلة المكيّة. ونظراً لأن الفترة الثانية تمثّل أو ينبغي لها أن تمثّل انتقالاً تدريجياً من الفترة الأولى إلى الثالثة كما يرى المؤلف، فإنّ هذه السور يمكن ترتيبها (على نحو أكثر سهولة) بشكل يعكس هذا التطور. وثانياً، في المواضع القليلة التي بين فيها نولدكه سبب مجيء سورة بعد أخرى، نجد الترتيب الزمني المقترح هو أمرٌ نسبيٌّ بين سورتين تشتركان في موضوع أو فكرة ما؛ ومعنى هذا أن السورة الأولى في نظر المؤلف سابقة على الثانية، ولكن لا

=

Study (Richmond: Curzon Press, 1999), خاصة ص ٢١-٢٢.

(١) انظر: : 121. p. (1909), Geschichte (1860) p. 93;

يلزم من ذلك أن تكون تالية لها بشكلٍ مباشرٍ، فلا مانع من مجيء سور أخرى بين السورتين. على سبيل المثال: يبيّن نولدكه أن سورة النبأ التي تنتمي إلى سور الفترة المكية الأولى وردت بعد سورة المرسلات؛ لأن الآية السابعة عشرة التي اشتملت على عبارة (يوم الفصل) يلزم منها أن تكون الآيتان الثانية عشرة والثالثة عشرة من سورة المرسلات موجودتين من قبل^(١).

ثالثاً: هذه العلاقة الخطيئة والشمولية التي يسعى وراءها نولدكه، مثله في ذلك مثل نظرائه من المستشرقين، تنطوي على مواطن ضعف أخرى. فرغم الإقرار بصعوبة تحديد تاريخ زمني لبعض السور القرآنية مثل سورة (الإخلاص، والكافرون، والفلق، والناس)، إلا أننا في نهاية الأمر نجدتها مقحمة في أي ترتيب زمني. فترد هذه السور القصار في نهاية الفترة المكية الأولى بسبب حجمها، إلا أن نولدكه يقول أن سورتي (الفلق، والناس) من الممكن أن تكونا مدينتين أيضاً، أما سورة (الفاتحة) فمن الممكن أن تدخل ضمن الفترة المكية الثانية^(٢).

(١) انظر:

‘V. 17 scheint schon Sûra 77, 12ff vorauszusetzen, und daher die Sûra jünger, als jene’ (Geschichte (1860), p. 82; Geschichte (1909), p. 104).

(٢) انظر:

Geschichte (1860), p. 85–6; Geschichte (1909), pp. 110–1

رغم أن شفالي يصرّ بعض الشيء مقارنة بسلفه على وجود تاريخ مبكّر محتمل لسورتي الفلق والناس.

وقد وُضِعَ حدُّ لهذا التردّد في فهرس «تاريخ القرآن» كما فُعل بالطبيعة المركّبة للعديد من السور. كما انتُقد نولده لتعامله مع السور القرآنية على أنها وحدات^(١). وفي واقع الأمر يسهب نولده في تحليل الأجزاء المختلفة للسورة، وهناك تركيز على قضية ترابط السورة أو غياب هذا الترابط بداية من الفترة المكيّة الثالثة فما بعدها. ولا شك أنّ بيان مفهوم السورة هو أمرٌ لازمٌ لأيّ دراسة تُعنى بالترتيب الزمني. فالى أي مدى يمكن اعتبار السور أو معظمها وحدات أدبية أو زمنية أو هما معاً^(٢)؟ والأمر الذي يمكن انتقاد نولده بشأنه هو

(١) يقول مونتجمري وات: إن القصور الرئيس في مشروع نولده يتمثل في تعامله مع السور كوحادات. انظر:

W. Montgomery Watt, Bell's Introduction to the Qur'an (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1970), p. 111).

(٢) مؤخراً ظهر القول بأن السور وحدات أدبية، وقال بهذا عدد من الدراسات المختلفة وإن تلاققت في مضمونها. انظر العمل الرائد لأنجيليكا نويبرت بعنوان Studien، علاوة على ما كتبه مؤخراً بعنوان:

Vom Rezitationstext über die Liturgie zum Kanon. Zu Entstehung und Wiederauflösung der Surenkomposition im Verlauf der Entwicklung eines islamischen Kultus' in S. Wild (ed.), The Qur'an as Text (Leiden: Brill, 1996), pp. 69-105;

وانظر أيضاً:

Neal Robinson, 'Hands Outstretched: Towards a Re-reading of Sūrat al-Mā'ida', Journal of Qur'anic Studies 2:1 (2001), pp. 89-106; S.M.S. El-Awa, Textual Relations in the Qur'an: Relevance, Coherence and Structure (London: Routledge, 2006); Michael Cuypers, Le Festin: Une lecture de la sourate al-Mā'ida (Paris: Lethielleux, 2007).

وفي السابق أكد بيل على القول بالطبيعة المركّبة للسور كما في كتابه (The Qur'an)، وكذا ولش في مقالة له بعنوان 'al-Kur'ān'، ص ٤١٨.

إغفاله الإجابة على هذا السؤال، بل إن قراره مراعاة تقسيم السور وتوزيعها والالتزام به قدر الإمكان هو أمر عملي؛ إذ يهدف إلى تفادي تشظية النصّ القرآني لئلا يتمزق تمزقاً شديداً ينتهي بنا إلى ركام من المواد^(١). وبالتالي فإنّ اختياره لموضع سورة مركّبة لا يأتي التزاماً بمعايير منهجية. فمثلاً سورة الذاريات تردّ عنده في الفترة المكيّة الأولى بسبب مطلع السورة، أما بقية الآيات التي يبلغ عددها (٤٣) آية فيبدو أنها أضيفت في وقت لاحق، بينما تنتمي سورة العنكبوت إلى الفترة المكية الثالثة رغم أن الآيات العشر الأولى منها مدنية كما يقول نولدكه. فماذا عن سورة الحج، إلى أي فترة تنتمي وأغلب آياتها مكية، لكن عنواؤها وموضوعها الرئيس يتتمان للفترة المدنية^(٢)؟

(١) يقول:

‘Wir wollen so viel als möglich die chronologische Reihenfolge innehalten, jedoch werden einzelne Stellen, die einer anderen Zeit angehören, besser bei ihren Sûren aufgeführt, um diese nicht zu sehr zu zerreißen’ (Geschichte (1860), p. 51; Geschichte (1909), p. 65).

وقد عبرت أنجيليكا نويبرت عن (ركام المواد) في مقالة لها بعنوان:

‘Qur’an and History – A Disputed Relationship: Some Reflections on Qur’anic History and History in the Qur’an’, Journal of Qur’anic Studies 5:1 (2003), pp. 1–18, p. 6.

وانظر أيضاً رأي بلاشير الذي يتفق مع هذا القول:

‘ce procédé conduirait tout droit à une dislocation des sourates qui, menée à son terme logique, aboutirait à un émiettement total de la Vulgate’ (Blachere, Introduction au Coran, p. 256).

(٢) انظر:

Geschichte (1860), p. 83, p. 115, p. 158; Geschichte (1909), p. 105, p. 154, p. 213.

=

وختامًا، ولعلّ هذا هو الأهمّ فإنّ التعامل مع محتوى تاريخ القرآن على أنه مجرد لائحة لترتيب زمني يؤدي إلى الخلط بين ترتيب ورود السور وبين الترتيب الزمني الفعلي، ويتجاهل ما يمكن القول أنه استراتيجية كتابية أو بلاغية سار عليها المؤلف من انتقالات وارتباط موضوعي بين السور ومصالح شخصية واعتبارات فنيّة، ونحو ذلك. إنّ الارتباط الموضوعي بين السور-دون دلالة زمنيّة واضحة- يشيع في دراسة نولدكه. فعلى سبيل المثال، تتم دراسة سورة النجم بعد سورة التكوير؛ لأن كلا السورتين تتحدثان عن رؤية ما^(١):

=

يضع نولدكه سورة الحج في نهاية الفترة المدنية. انظر أيضًا:

Geschichte (1860), p. 46; Geschichte (1909), p. 59

حيث يقرّر أنّ القوائم التاريخية الإسلامية تراعي مطلع السورة، ويضيف في ملحوظة أوردها أن هذا هو الطريق المنطقي الوحيد لترتيب السور ذات الطبيعة المركبة بشكلٍ تاريخي.

(١) يقول (بتصرف يسير):

‘Mit letzterer [sura 81] wollen wir Sûr. 53 ... verbinden, obgleich sie einerseits zu den

spättern der ersten Periode, anderseits nicht zu dieser dritten Abtheilung gehört; beide hängen aber durch ihren Inhalt zusammen, indem in beiden vom Erscheinen des Engels geredet wird’ (Geschichte (1860), p. 79; Geschichte (1909), p. 99

وهذه الصياغة المضطربة تبين غموض نولدكه في الترتيب التاريخي الذي ساقه، فالى أي مدى يتقيد

باعتبارات التسلسل التاريخي أو اعتبارات موضوعية في إيراد سور الفترة المكية الأولى، التي قسمها إلى

ثلاث فئات موضوعية؟ وفي هذا الاقتباس يقترح نولدكه أن الفئة الثالثة التي تتضمن السور التي تتحدث

عن الدار الآخرة، قد تضم أيضًا السور الأخيرة في هذه الفترة. ولكنه يقرّر في موضع سابق أنه يستحيل

وضع ترتيب تاريخي لمعظم سور الفترة الأولى، ولذا يرتبها وفق محتواها. انظر: (Geschichte (1860),

p. 73; Geschichte (1909), p. 91.

«ونود أن نقرن بالسورة المذكورة آخرًا (التكوير) سورة (النجم) التي تعدّ من السور المتأخرة في الفترة الأولى، لكنها لا تنتمي إلى هذه المجموعة الثالثة. تجمع بين السورتين علاقة مضمونية إذ يرد في كليهما حديث عن ظهور الملك».

وعلاوة على ذلك فإن قرار نولدكه دراسة السور التي تتحدث عن مجيء الآخرة ونهاية العالم في نهاية المبحث الخاصّ بسور الفترة المكيّة الأولى يبدو أنه جاء في الأغلب نتيجة لحفاوته البالغة بالأسلوب الفني الجميل لهذه السور، واتساقًا مع كلامه عن «التراجع الأسلوبي».

إنّ التمييز بين الترتيب الذي تُذكر به السور والتسلسل الزمني المزعوم هو في حقيقته أمرٌ لازم عند قراءة التقسيمات الزمنية التي جاء بها المستشرقون، حتى ولو كان المؤلفون أنفسهم لا يميزون بينهما، ولذا فإنّ ما فعله هيرشفيلد من تجميع لسورة الأحزاب، وسورة الطلاق، والنور، والتحريم، والمنافقون، والمجادلة، ووضعها معًا كما في متن كتابه، ثم مرة أخرى في ملحق الترتيب الزمني للسور القرآنية، لم يأتِ نتيجة اعتبارات تاريخية زمنيّة وإنما انبثق من مصلحة شخصية خاصّة؛ فقد أراد أن يخصّص بهذا الشكل فصلًا موجزًا عن السور القرآنية التي تحدثت عن حياة محمد الشخصية^(١).

(١) انظر: Hirschfeld, New Researches, pp. 120-4.

وفضلاً عن ذلك فإنّ هذا الترتيب يتعارض مع تأريخه لسور القرآن، فإنّ سورة التحريم التي يقال أنّها تشير إلى توترات حدثت في بيت محمد إثر زيارته المتكرّرة لمارية القبطية، تعود إلى السنة السابعة كما يرى هيرشفيلد استناداً إلى أسباب النزول، ومع ذلك وُضعت مع سور أخرى مبكّرة يرى هيرشفيلد أنّها تشير إلى حياة محمد الشخصية مثل سورة الأحزاب، والطلاق، والنور، وقبل سورة الفتح التي ترتبط بواقعة الحديبية وتعود إلى السنة السادسة؛ ولذا فإنّ وضع سورة التحريم في ملحق الترتيب الزمني بين سورة النور وسورة المجادلة هو خطأ أو على الأقل سهو من المؤلف رغم أن أسباب ذكر سورة التحريم مع سورة الأحزاب والطلاق والنور والمنافقون والمجادلة واضحة في متن دراسة هيرشفيلد. وفي هذه الحالة فإنّ مصلحة هيرشفيلد في التسلسل القرآني الأصلي قد اصطدمت باهتمامات أخرى تجاوزتها وامتزجت بها إلى حدّ يصعب معه التمييز بينها إلا على القارئ اليقظ الذي يلمّ بآخر ما كتب من بحوث في هذا الشأن.

كذلك فإنّ القارئ المتعجّل لكتاب «مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن» الذي كتبه فايل قد يظنّ كما فعل ولش أن سورة الكافرون تلي سورة الماعون مباشرة؛ لأن فايل قد ذكرها عقبها مباشرة. والمفارقة أن فايل يشير إلى سورة الكافرون على وجه التحديد لينفي أنّها وردت في نفس توقيت سورة الماعون مخالفاً بذلك ما جاء في ترتيب «تاريخ الخميس». مما لا شك فيه أن سورة الكافرون لا

تنتمي إلى الفترة الأولى وإنما الثانية حين بلغت دعوة محمد من الانتشار ما أجبر المشركين على قبول بعض التنازلات^(١). ولأن فايل لا يناقش سورة الكافرون في أي موضع آخر في دراسته، فقد يحدث لبس لدى من يقرأ الترتيب الذي التزم به فايل في ذكر السور ويظنه ترتيباً زمنياً.

علاوة على استراتيجية الكتابة التي تُعنى بطريقة ترتيب المعلومات وعرضها على القارئ في صورة مقنعة لطيفة؛ يمكن للمرء أن يلاحظ نوعاً من الاستراتيجية السردية التي تهدف إلى تقديم هيكلية تاريخية مصاحبة للترتيب الزمني بشكلٍ منطقيٍّ مترابط^(٢). ولا بد من التمييز بين الأمرين لتجنب الوقوع في قراءة خاطئة

(١) يقول:

‘Die 109 ... gehört gewiss nicht in der erste Periode, sondern in die zweite, wo Mohammeds Lehre doch schon so um sich gegriffen hatte, daß die Götzendiener ihm einige Koncessionen machen wollten’ (Weil, Historisch-kritische Einleitung, p. 60).

انظر خطأ ولش في مقالة له بعنوان: al-Ḳur’ān، ص ٤١٦. وبالمثل فقد أخطأ ولش في قراءة الترتيب الذي وضعه فايل لسورتي النجم والتكوير؛ وانظر أيضاً: Weil, Historisch-kritische Einleitung, p. 59.

(٢) المفاهيم الواردة هنا عن استراتيجيات الكتابة والسرد يمكن عزوها للتمييز الشهير في علم الرواية بين الحبكة والقصة وفق ما أشار إليه أنصار المدرسة الشكلية الروسية. ويرى المنظر الأدبي الأمريكي جوناثان كلر، أن مصطلح القصة يراد به تسلسل من الأحداث، مستقلاً عن تجلياته في الخطاب، بينما الخطاب هو تعبير خطابي أو رواية للأحداث، وهو تمييز له صداه هنا. انظر:

Johnathan D. Culler, The Pursuit of Signs, 2nd edn, (London: Routledge, 2001), p. 189.

كما حدث مع ولش، وكذلك لا بد من إنعام النظر في أهداف كل منهما؛ إذ يسعيان وراء الترابط المنطقي والإقناع، ولهذا أطلقنا عليهما لفظ استراتيجية.

إن مشروع الترتيب الزمني للقرآن يطمح في حد ذاته إلى إعادة دمج العلاقة الخطية في النص القرآني لتكوين قصة تنسجم مع الهيكلية السردية لتطور المجتمع الإسلامي الأول. وهذه الاستراتيجية السردية تتجلى بوضوح في كتاب «تاريخ القرآن»، الذي يسعى بدأب إلى تقديم رؤية متسقة موحدة، بل ويمكن القول بأنها رؤية مقتصدة لتطور الأحداث. وفي هذا الإطار نجد التقسيم الثلاثي للفترة المكية وما يقابله من سيناريو تراجع الأسلوب وحماسة محمد يصب في هذه الغاية، تمامًا مثلما هو الحال في دراسة نولدكه للأحداث المدنية والترتيب الزمني للسور المقابلة لهذه الأحداث.

وبخلاف قليل من السور والآيات التي يُحدّد تاريخها وفق ما جاء من أخبار حول سبب النزول، ويرتاب شفالي في معظمها؛ فإن عامة السور المدنية تصنف وفق مرحلتين، فنجد أولاً السور التي فهم منها الإشارة إلى أحداث مهمة بعينها، لها سندها في السيرة مما يشهد لها، وتشكّل قوام هذه الأحداث، وتدور هذه السور حول تغيير القبلة (سورة البقرة)، وغزوة بدر (سورة الأنفال)، وغزوة أحد (آل عمران)، وإجلاء بني النضير (سورة الحشر)، وغزوة الخندق وما تلاها من إجلاء بني قريظة (سورة الأحزاب)، وصلح الحديبية (سورة الفتح)، وحجة الوداع (سورة التوبة). فهذه السور تشكّل الهيكل التاريخي الذي يسمح

في خطوة تالية بتحديد تاريخ للسور والآيات الأخرى وفق تشابه المحتوى أو السياق النفسي؛ ولذا فإن سورة البينة تلي سورة البقرة لأنها تشتمل مثلها على انتقاد لاذع لأهل الكتاب^(١). ولعل ما يكشف بوضوح عن هذه الاستراتيجية السردية الموحدة لنولده أن جميع المواضع القرآنية التي تحدثت عن الحزن والصعاب تعود إلى فترة زمنية تقع بين هزيمة أحد (سورة آل عمران) والنصر في غزوة الخندق (سورة الأحزاب). وهذا الشكل يحدّد نولده ترتيب سورة الحديد؛ إذ إنّ الآيات من الثانية والعشرين حتى الرابعة والعشرين تكشف عن فترة كانت فيها أحوال محمد سيئة^(٢)؛ وكذلك سورة آل عمران، الآية ١١١ التي تذكر كلمة ﴿أَذَى﴾ في إشارة إلى أهل الكتاب، ولا بد أنها جاءت في سياق تألم المسلمين لهزيمتهم أمام عدوّهم وقد وجدوا أنفسهم معرضين مرة أخرى لشورهم^(٣)؛ نفس الأمر ينطبق على سورة النور من الآية ٤٦ حتى الآية ٥٧،

(١) انظر: Geschichte (1860), p. 136; Geschichte (1909), p. 185. مع إضافات لشفالي.

(٢) يقول:

‘Aus 22 f. geht, daß Muhammad zur Zeit der Abfassung im Unglück war; wir setzen daher die Sura am wahrscheinlichsten in die Zeit zwischen der Uḥudschlacht und dem Grabenkriege’ (Geschichte (1860), p. 145; Geschichte (1909), p. 195).

(٣) انظر:

Geschichte (1860), p. 142; Geschichte (1909), p. 192.

الآية ١٠٧ من سورة آل عمران كما في نسخة فلوجل، نقلاً عن كتاب «تاريخ القرآن».

والتي توبّخ المنافقين^(١). لا شك أن اقتصاد نولدكه في برهانه هو مثار انتقاد لما فيه من مبالغة في التبسيط وميل إلى توحيد الظروف والملابسات. فهل يُعقل أنه طوال عشر سنوات قضاها محمد في المدينة لم تكن هناك فترة عصيبة مرّ فيها بصعوبات وآلام سوى التي تلت هزيمة أحد؟ رغم أن مستويا التأليف، البلاغي والسردى، حتميان على ما يبدو في عمليات إعادة الهيكلة التاريخية، إلا أنه تجدر العناية بهما ودراسة آلية كل منهما.

(١) «ولا بد من أن هذا التهجم ينتمي إلى زمن كانت فيه أحوال محمد سيئة، أي على الأرجح الفترة الواقعة بين وقعة أحد ونهاية حرب الخندق».

"So Viel ist wenigstens gewiss, daß sie einer Zeit zuzuschreiben sind, in der es Muhammad schlecht ging, d.h. der Periode zwischen der Schalcht am Uḥud und dem Ende des Grabenskampfes" (Geschichte (1860), p. 157; Geschichte (1909), p. 211-2).

سورة النور: الآيات ٤٥-٥٦ في نسخة فلوجل نقلاً عن كتاب «تاريخ القرآن». وهناك مواضع أخرى حُدّد تاريخها بهذا الشكل، منها الآية ١٥٥ في سورة البقرة، (حسب نسخة فلوجل هي الآية ١٥٠، انظر: Geschichte (1860), p. 131; Geschichte (1909), p. 177 وكذلك الآيات ٧١-٨٣ من سورة النساء (وهي ٧٣-٨٥ عند فلوجل، انظر: Geschichte (1860), p. 149; Geschichte (1909), p. 201).

الخاتمة:

سعى هذا البحث إلى إنعام النظر في المبادئ والفرضيات والمزايا والعيوب التي اشتمل عليها الترتيب الزمني في كتاب «تاريخ القرآن»، علاوة على خصوصياته مقارنة بالتقسيمات الزمنية الأخرى التي وضعها المستشرقون في القرن التاسع عشر. وإذا كان الترتيب الزمني الاستشراقي للقرآن -والذي بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر- قد جسّد علامة فارقة في التعامل الغربي مع القرآن، إذ انبثق مباشرة من فهم أفضل للمخطوطات الإسلامية؛ فلا ينبغي في هذا الصدد إغفال أثر التراث التفسيري الإسلامي في التقسيم الزمني الاستشراقي. ومما لا ريب فيه أن نولدكه وأقرانه يسعون من خلال مناهجهم النقدية التي يحتفون بها^(١) إلى الهروب من سلطان النقل والرواية، ولكنهم من خلال تقديم قوائم زمنية للسور، وإن كانوا لا يقولون بأنها ترتيب زمني دقيق، بيد أنها تجسّد خصائص النقل؛ فهم بذلك يتنافسون مع المصادر التراثية الإسلامية، وتشارك قوائم الترتيب الزمني الإسلامية مع محاولات المستشرقين وضع ترتيب للسور القرآنية -بما في ذلك عمل نولدكه- في المنظور الخطي الشامل ذي البعد الواحد، متجاهلة بذلك إشكالات إعادة الاستخدام، والصياغة، وإعادة تعيين المعنى في زمن محمد نفسه وبعد وفاته. ولذا يمكن

(١) انظر على سبيل المثال: Geschichte (1860), p. 51; Geschichte (1909), p. 65.

القول أن دراسة نولده من خلال ترشيد الخصوصيات والسعي إلى الترابط المنطقي تعزز الإطار التراثي لقوائم السور القرآنية التي وضعها المسلمون بدلاً من أن تسقطه.

وقد جاء تنقيح شفالي لتاريخ القرآن سنة ١٩٠٩، أي بعد خمسين سنة من تقديم نولده أطروحة الجامعة، ليقدم موقفاً أكثر ابتعاداً عن التراث الإسلامي وتحيزاً ضده، والأهم ضد مشروع الترتيب الزمني بوجه عام. وبهذا يكون التوتر أو التباين بين الموقفين المنهجين هو قوام النسخة الثانية. ولعله يحقق توازناً دقيقاً - وإن كان في بعض الأحيان واهياً - بين الهدفين المختلفين اللذين لا غنى عنهما لأي ترتيب زمني حديث: الموقف النقدي تجاه المصادر التراثية من جانب، والالتزام بتقديم ترتيب زمني مقبول من جانب آخر. ويصل هذا التوتر في بعض الأحيان إلى حدّ اللبس الذي نجم عن عملية التنقيح ووجود أكثر من مؤلف للنسخة الثانية. وهذا من شأنه أن يوضح لنا السر في عدم وجود عمل آخر في هذا الموضوع يحظى بالمنزلة ذاتها، وسبب عزوف غالبية العلماء في وقتنا هذا عن محاولة وضع ترتيب زمني محدد للسور القرآنية على أي أساس يروونه^(١).

(١) انظر مقالة شورلر بعنوان: 'Post-Enlightenment Academic Study'، ص ١٩٢.

إذن، ما مدى فائدة الدراسة التاريخية لكتاب «تاريخ القرآن»؟ لا شك أن دراسة نولده تممت بحسن التوثيق، وأظهرت اطلاعاً ملحوظاً على المصادر العربية، وجاءت مشتملة على كثيرٍ من الملاحظات المثيرة ذات الطبيعة الفيلولوجية. ولا يمكن إنكار العبقرية في وضوح المنهج والبرهان، خاصة في التقسيم الثلاثي للفترة المكيّة. ومع ذلك، فكما أوضحنا، لا يمكن الزعم بأن «تاريخ القرآن» يقدم ترتيباً زمنياً دقيقاً، كما أن التقسيم الثلاثي للفترة المكيّة، وإن جاء مترابطاً مقنعاً، إلا أنه يقوم على فرضيات ظنيّة لا سبيل إلى إثباتها. وقد رأى العديد من الكتّاب أن التقسيم الذي جاء به نولده يحتاج مثله مثل عمل بيل أو بلاشير إلى تهذيب وتتمّة في شكل دراسات موضوعيّة مفصّلة. لهذا نجد نيل روبنسون يشبه هذا المشروع برمته بمحاولة حل لغز الكلمات المتقاطعة^(١):

«لإحراز تقدّم في هذا الصدد (مسألة الترتيب الزمني للقرآن) هناك حاجة لدراسات موضوعية... تراعي هذه الدراسات جميع الإشارات القرآنية إلى موضوع بعينه، دون أن تتقيّد حرفياً بأيّ من التقسيمات الزمنية للسور. وعلى أساس كلّ دراسة، يمكن الخلوص إلى نتائج في الترتيب

(١) انظر:

Gerhard Böwering, و انظر أيضاً مقالة، Robinson, Discovering the Qur'an, pp. 95-6

'Chronology and the Qur'an'، في موسوعة القرآن، ومقالة ولش بعنوان al-Ḳur'ān

وانظر: Watt, Bell's Introduction, p. 114.

الزمني المحتمل الذي وقعت فيه هذه الإشارات. لكن تبقى هذه النتائج مؤقتة، وربما تحتاج إلى تعديلها أو طرحها بالكلية في ضوء ما تتوصل إليه أبحاث أخرى في موضوعات مختلفة. إنَّ المشروع برمته أشبه بمحاولة حلِّ لغزٍ عويصٍ من الكلمات المتقاطعة. فإنَّ حلَّ مفاتيح الكلمات حتى الصف الخامس لا شك أمر عبثي، لكن يبقى بلا فائدة ما لم يتم التوصل لحلِّ جميع المفاتيح الأخرى المتقاطعة معه».

ومع ذلك يبقى السؤال حول مدى إمكانية الوصول إلى ترتيب زمني أكثر دقة أو أثر زيادة الدراسات الموضوعية في إتاحة المزيد من البيانات المفيدة والإشكالات المنهجية في الوقت ذاته، نظرًا لأنَّ كلَّ باحث سيتناول هذه الدراسات في ضوء ما لديه من فرضيات واستراتيجيات. ولا شك أن تشبيه روبنسون لهذا المشروع بلغز عملاق من الكلمات المتقاطعة رغم ما ينطوي عليه من إحياءات، إلا أنه يعزز اتباع منهج يوغل في الخطية والبعد الأحادي، ويعطي انطباعًا بوجود حلِّ نهائي يختفي داخل النصّ ينتظر من يميظ اللثام عنه. ومع ذلك لا غنى عن اتباع مقارنة تاريخية تطورية في دراسة القرآن، تتناول ما وقع من تطورات مهمّة في الفكر والأسلوب. ولا بد من مواصلة الدراسات التاريخية الموضوعية دون التقليل من قيمة كتاب «تاريخ القرآن» في هذا الصدد. ويكمن التحدي في التعاطي مع الأدوات الناقصة، والعمل في ضوء فرضيات ظنيّة تقريبية مع مراعاة حدود تلك الفرضيات.

